# ابنة سوسلوف

حبيب عبدالرب سروري

رواية

دار الساقي

المشروع

# ابنة سوسلوف

# صدر للمؤلّف

- في الرواية:

**الملكة المغدورة**، دار الأرماتان، فرنسا، 1998. ترجمها للعربية علي محمد زيد، دار المهاجر، اليمن، 2002.

**عرق الآلهة**، دار رياض الريس، لبنان، 2008.

**دملان** (ثلاثية روائية)، دار الآداب، لبنان، 2009.

**طائر الخراب**، دار رياض الريس، لبنان، 2011.

**تقرير الهدهد**، دار الآداب، لبنان، 2012.

**أروى**، دار الساقي، لبنان، 2013.

- في القصص:

**همساتٌ حرّى من مملكة الموتى**، دار العفيف الثقافية، اليمن، 2000.

- في الشعر:

**شيءٌ ما يُشبِهُ الحب**، دار العفيف الثقافية، اليمن، 2002.

- كتب فكرية:

**عن اليمن، ما ظهر منها وما بطن**، دار العفيف الثقافية، اليمن، 2005.

**لا إمام سوى العقل**، رياض الريّس، لبنان، ٢٠١٤.

- كتب ومقالات علميّة:

نُشرتْ له كتب علمية عديدة وأكثر من 95 بحثاً علميّاً بالفرنسية والإنكليزية في مؤتمرات ومجلات علميّة دوليّة محكّمة.

خطوط العناوين: حمدي طبارة
تصميم الغلاف: سومر كوكبي

حبيب عبد الرب سروري

# ابنة سوسلوف

دار الساقي

© دار الساقي
جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى 2014

ISBN 978-6-14425-800-2

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342، بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 2033–6114
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+
email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi
دار الساقي
Dar Al Saqi

لِعبد الرحمن عبد الخالق...

"الحرب الروحيّة لا تقلُّ شراسةً عن معارك الفرسان."

**آرثور رامبو**

"أين أنتَ؟ أرِني ماذا كتبتَ؟"
لم أُجِبْها، كانت الليلةُ كوخاً بدويّاً
والمصابيحُ قبيلة
وأنا شمسٌ نحيلة
تحتها مزَّقتِ الأرضُ رُباها
والتقى التائهُ بالدُّرب الطويلة.

**أدونيس**

# الفصل الأول

منشور من حائطي في الفيسبوك:

المكان: حيّ الشيخ عثمان، عدَن.

الزمان: ١٩٦٢ (كُنّا في السادسة من العمر).

بطل المشهد: الحسّاني، ماكينة إضحاك، له ٤ أضعاف أعمارنا، و ١٠ أضعاف أجسادنا.

لحظة مجده: عندما كان يعبر الشارع، ويرميه أحدنا بحجرةٍ صغيرةٍ على ظهره.

يُدوّي حينها بلحنٍ دينيٍّ تقليديٍّ رخيم، وبصوتٍ جبار، هذه العبارة: "أيْرِي بِأمّه منْ جدلنا"[١].

تهرع من كلِّ فجٍّ عميق كتيبة أطفال تلتفُّ وراءه، وهي تردُّ عليه بصوتٍ مشترك، وعلى نفس اللحن الديني، هذه العبارة:

"صلى الله عليه وسلم!"...

ثم نبدأ مسيرةً مشتركة، تطفح متعةً وسعادة، يقود فيها الحساني

---

١ أي: من رماني بالحجرة.

خمسين طفلاً يجوبون شوارع الشيخ عثمان، يبدأ خلالها بالشطر الأول:

"أيري بأمّه من جدلنا".

ونحن بعده، أمام أهل الشوارع الذين يضحكون بكل براءة، نهتف، تصاحبنا موسيقى قرع أعواد خشبيّة جافة على علب حليب "دانو" المعدنية:

"صلى الله عليه وسلم!"...

الغريب جدّاً أن هذا اللحن الديني العذب (الذي استعارته مسيرات طفولتنا من ألحان الموالد الدينيّة التي كانت تطوف آنذاك شوارع الشيخ عثمان في بعض ليالي الخميس) عاد من جديد (بعد حوالي ٨ سنوات فقط)، لكن في مسيراتٍ شعبيّةٍ ثوريّة، مختلفةٍ تماماً عن مسيراتنا وراء الحسّاني:

مسيرات "الجماهير الشعبيّة الكادحة" التي كانت تردّد هذه القطعة الأدبية النادرة، شديدة الرقّة والنبل والرومانسية:

عادت الأرض بالقوّة وبالانتفاضات
عنف بالعنف لولا العنف الإقطاع ما مات
ولولا العنف ما العالم تفجّر بثورات
ولولا العنف ما سقطت جميع الحثالات!

كان ذلك في مسيرات ما سُمِّيت آنذاك بـ"الأيام السبعة المجيدة" التي هجم فيها بدو الريف على عدن لتثوير أبنائها "المترهّلين بسبب الثقافة الاستعمارية الإنجليزية"، كما قالوا.

للاحتفال بالعنف، لا شيء غير العنف.

ولمباركة "الانتفاضات الفلاحية التي قامت في الريف الثائر لسحل الإقطاع وتأميم أراضيه"...

كل ذلك على إيقاع الثورة الثقافية الماويّة.

قبلها مرّت أحداث جسام:

١٩٦٣: بدء الكفاح المسلح في جنوب اليمن ضد الاستعمار الإنجليزي.

١٩٦٧: استقلال جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية.

١٩٦٩: الانقلاب الذي حمل "اليسار" إلى السلطة، وأسّس ج.ي.د.ش: جمهوريّة اليمن الديمقراطيّة الشعبية.

السؤال الذي أنهك طفولتي وأزّمني على الدوام:

لماذا لم تبتكر "الجماهير الشعبيّة الكادحة" لحناً آخر ينسجم مع هذه الكلمات الناريّة، بدلاً من ذلك اللحن الصوفي الرقيق الذي كنّا نغنّيه في طفولتنا خلف الحسّاني؟

ما أتفه الحسّ الفني للجماهير الشعبية الكادحة! ما أتعس الكسل! ما أقبح وألعن سوء الذوق!...

تمرّ أربعون سنة بعد ذلك لأستحضر هاتين الأنشودتين وأنا أصغي إلى أحد مجاذيب مسيرات "ثورة الربيع اليمني" يقودُ فدائيّيه بشكلٍ شبيهٍ تقريباً.

يدوّي صوت المجذوب:

"كلّما زِدنا شهيد".

ويردِّد الفدائيّون بعده:

"صرنا ثوّار من حديد!".

غير أن أنشودتهم هذه لم تكن برقّة ومتعة نشيد الحسّاني.

لم يصاحبها "التصفيق الثوري" الصاخب الراقص، حتّى وإن لم يتناغم مع اللحن الديني الرخيم لـ"عنف بالعنف".

لم تكن موجّهةً ضد "الإقطاع والثورة المضادّة"...

لكنها زعيقٌ جنونيٌّ خالص، بلا لحن، موجّهٌ ضد الحياة، ضد الإنسان.

احتفالٌ من كباش فداء بثقافة الاستشهاد والانتحاريين، بثقافة إبادة الذات!

بعد عصر "الاشتراكية العلميّة"، ها نحن نلج عصر الفجاجة والظلامية وإبادة الذات!

"انتهى المشوار" كما ستقول أغنية عبدالحليم حافظ اليوم!...

*********

لو طلب مني هادم الملذّات ومفرِّق الجماعات أن أقول كلمتين تلخّصان مشاعري حال رؤيته، فسأقول: "ما حصل لحياتي يتجاوزني تماماً. لم أستوعب منه شيئاً. سأكون محظوظاً وممتنّاً لو ساعدتني، عزيزي قابض الأرواح، على توضيح ذلك وفهمه، أنت الذي كشف لك الباري بالتأكيد أسرار البدايات وعرجنات المصائر".

ولأن مشاغله عليه السلام كثيرة، فسأضطر (إن وافق على الإصغاء إليّ بضع دقائق) أن أرمي معظم تفاصيل حياتي في سلة المهملات،

وأسرد له سرَّ أسرارها الذي إذا لم يتكرم عليّ بتفسيره فلن أستوعبه إلى أبد الآبدين.

سأبدأ له من "دكان الأعمى"، عشية سفري من مدينة عدَن "اليمنية الديمقراطية الشعبية"، في معمعان "مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية" في منتصف سبعينيات القرن الماضي، لمنحةٍ دراسية إلى باريس.

"دكان الأعمى" حانوتٌ صغير في ركن شارعنا كان يديره شيخٌ نحيفٌ تقيٌّ أعمى، تربطني به محبّةٌ عميقة.

كنت أتردّد على حانوته كل يوم، أقعد برهات فوق جواني[1] السكَّر والطحين والرز المواجهة له، أراقبه وهو يتحرّك في دكانه، أعجب به وهو يجد في رفوفه كل ما يطلبه الزبائن دون بحثٍ وعناء، يكيل بدقّة أرطال الطحين والسَمن (الدُهن) التي يطلبونها، في كفّتَي ميزانه النحاسي الصدئ، دون الحاجة إلى مساعدٍ بصير.

كنت أهرب من سخونة شمس عدَن إلى عتمة الظلِّ الحميد في حانوت صديقي العم سيف العريقي، أثرثر معه بسعادة، وأصغي باهتمام إلى صوته الرهيف المتحشرج، المتناغم مع لطف الضوء الخافت لحانوته.

على يميني، وأنا أقرفص هنيهات فوق جوانيه، بابٌ صغير يؤدي إلى بيتٍ ملتصقٍ بالدكان، يسكنه العم سيف بمعيّة زوجته وأطفاله الستّة.

ينفتح الباب مسافة شبرين باتجاهي، عندما كانت تأتي مع أمِّها

---

١ أكياس من الخيوط السميكة المنسوجة (أشولة الخيش).

إلى هذا البيت طفلةٌ تقترب من الثالثة عشرة (تصغرني ست سنين).

أمّها، فيروز، من مواليد شارعنا. كان يُطلَق عليها: "ملكة جمال عدَن". اعتادت أن تأتي إلى شارعنا مرة أو مرتين كل أسبوع (بسيارتهم الحكومية، وبسائق خاص) من فيلتهم، في حيّ خورمكسر بعدَن، التي يسكنونها منذ عودة زوجها، سالم، من دراسته للماركسية اللينينية في موسكو، وتعيينه رئيساً "للمدرسة العليا للعلوم الماركسية اللينينية" في عدَن. (أُطلق عليه حينها لقب "سوسلوف الحزب" نسبةً إلى ميخائيل سوسلوف، مسؤول الدائرة الأيديولوجية في الحزب الشيوعي السوفييتي حينها).

كان سالم قياديّاً من الطراز الرفيع، ودونجوان من الطراز الأرفع أيضاً...

تحمل هذه الطفلة اسمها بجدارة: فاتن. لكني أفضِّل، عزيزي قابض الأرواح، أن أسمّيها: هاوية!

(اسمي، كما تعرف، عمران. اسم جزيرةٍ ساحرةٍ قريبةٍ من عدَن، كان يحبُّها كثيراً أبي الحاج عبد الله عبد السلام. كنت أذهب معه وعائلتنا للسباحة فيها، يوماً كاملاً كلّ شهر. لم يكن فيها عدانا أحد معظم الوقت!

عندما أتذكر أبي أتذكر البحر. عوّدني منذ فجر طفولتي أن "نتطرفش"، كما يقول، أي أن نسبح، في الحقيقة، بمهارة ومهنيّة، نصف ساعةٍ على الأقل في الشواطئ القريبة، أو أن نذهب للاصطياد معاً بضع سويعات، بُعيد الفجر.

بفضل أبي عشقت البحر بضراوة. صار أفيوني العبقريّ. أولد فيه

من جديد. أحتاجه بشكلٍ عضويٍّ، مَرَضي...

يغمرني فيه سيلٌ من ذكرياتٍ بَحْرية، لا نهاية لها، في أدفأ وأجمل شواطئ الدنيا، شواطئ عدَن التي يمكن السباحة فيها ٢٤ ساعةً في اليوم، طوال كل أيام السنة).

تستقيم هاوية في الباب كتمثال، تبعد عنّي مترين على الأكثر. تنظر في البدء باتجاه العم سيف ورفوفه طويلاً.

أراها جانبيّاً وهي واقفة في ما تيسَّر من فتحة الباب، قبل أن تستدير نحوي رويداً رويداً، مليمتراً مليمتراً، نانومتراً نانومتراً، لتواجهني تماماً، لتثبّت عينيها في وجهي، لتحدّق فيّ بصمت وبراءة وجرأة مدّة دقيقة،

دقيقتين،

ساعة،

ساعتين...

لا تتوقّف عن تصويب نظراتها الليزرية عليّ إلا عند دخول زبون. تستدير عندها من جديد باتجاه الرفوف والعمِّ سيف، حتّى يغادر الزبون الدكان تماماً، ثم تعود نظراتها تلفحني من جديد من حيث توقّفتْ...

أوجّه نظراتي نحو العم سيف لا غير، أختلس بينها نظرات تقترب من تخوم الباب، تعبر وجه هذه الفتاة الصغيرة بعجلٍ وحرجٍ وارتباك. وشاحٌ من عرَقٍ رهيفٍ ينهمر من كلِّ مساماتي. أرتبكُ كثيراً في الحقيقة بوضوح. في عينيها ابتسامة تشفق عليّ؛ تسخر من ارتباكي ربما.

أعود إلى العم سيف، إليها، أتجرّأ على أن أحدّق فيها لحظةً أطول، لا أتجرّأ...

تتكرَّر طقوس هذا اللقاء الصامت الغريب مرةً أو مرتين كلّ أسبوع. أنتظره يوميّاً برغبة متزايدة.

سأهمس لعزرائيل معترفاً: "لعلّي، عزيزي سارق الأرواح، لم أرَ في كلِّ حياتي وجهاً بذلك الجمال الملائكي ينتصّ على جسدٍ واعد!".

ثم صرت في الأيام الأخيرة، قبل سفري من عدن إلى باريس، أتجرأ على التحديق في هاوية بضع دقائق أحياناً، وهي تخترقني بنظراتها... لكننا لم نكن ننطق بكلمة؛ لم نكن ننبس بحرف. لعلها كانت تنتظر دائماً أن أقول شيئاً ما. لا أعرف...

ماذا أقول في الحقيقة لفتاة كان لي عمرها ونصف تقريباً (تجاوزتُ الثامنة عشرة)؟ طفلةً لا يمكنها أن تكون شريكة حياتي يوماً: ما يفصل عمرينا (٦ سنوات) يتجاوز ما أسمّيه "جدار بلانك" (كما في الميكانيكا الكوانتية)؛ الجدار الزمني الحاجز الذي فرضته قناعاتي الثورية الماركسية اللينينية في ذلك الزمن: ستكون شريكة حياتي أصغر أو أكبر مني بخمس سنين في الحدّ الأعلى، لا غير.

ومع ذلك كان وجهها، ونظراتها الرقيقة الثاقبة، لا يفارق ذاكرتي كل يومٍ وليلة... لم تكن تميل لتوجيه الابتسامات، وإن كان جمال لمعة عينيها نافورة سعادة.

أتذكَّر: في نظراتها حزنٌ ما، صمتٌ مقلق.

ظلال قوسين داكنين أسفل عينيها اللامعتين يوحيان بأنها لا تنام جيّداً، تعاني من سهدٍ ليليٍّ مستديم، من وجع عميق...

أتساءل عزيزي قبطان سفينة الموتى: لماذا تحدِّق فيّ كذلك؟ لعبةٌ عابثة؟ حبٌّ غريب؟ أبِوُدِّها أن تفضي إليَّ بشيءٍ ما؟ لماذا لم تبتسم مرّةً واحدة؟...

عندما كنت أنام فوق سقف بيتنا، الملتصق بسماء مترعة بالنجوم، كان وجه هاوية يملأ تلك السماء. لا أنام دون أن أُحدِّق فيه، دون أن أقول له أشياء كثيرة لم ألفظ منها حرفاً مسموعاً أمامها في لقاءات دكان الأعمى.

لم أكن أتجرأ، مع ذلك، على عناق ذلك الوجه أو تقبيله، حتى في مخيّلتي: ثمّة رقيبٌ حزبيٌّ لا تلين له قناة يرفع لوحةً مكتوبٌ عليها: "جدار بلانك!".

في المرات الأخيرة التي سبقتْ سفري للدراسة في باريس، كان لقاء التمثالين ينتهي برجفةٍ صامتةٍ مدوّية ومشاعر مزدحمة كثيفة: دمعتان تسيلان على وجه هاويةٍ المشرق الواعد، تتلألأ معهما عيناها السوداوان اللامعتان.

ترافقهما دمعتان تسيلان بصمت وسريّة في حناياي، لا تراهما صغيرتي الحبيبة فاتن، عفواً: هاوية!

أجزم وأكرّر، عزيزي كاسر الرغبات ومُنهي المسرّات: في كل الليالي التي كنت أنام فيها فوق سطح منزلنا محدِّقاً في نجوم سماء عدن، وأنا أستحضر حوار التمثالين الصامت في "دكان الأعمى"، لم أجرؤ يوماً على ممارسة الرغبة في احتضان هاوية، أو مجرّد تقبيل

وجهها فقط، لأني كنت أخشى أن أكون "مجرماً"؛ منتهك ملكوت طفلة بريئة...

ولأني، بشكلٍ خاص، في قضايا هموم الجسد وأشواقه، كنت

أهرول

مباشرةً

إلى

أحضان "الدكتورة"!

# الفصل الثاني

منشور من حائطي في الفيسبوك:

إذا سألني "ملاك الثورات" يوم الحشر والبعث والنشور عن "بيان رصيد حسابي الشخصي" من نشاطات الثورة اليمنية، عندما كنت طالباً في عدن، فلن أستطيع أن أستعرض أمامه غير مساهماتٍ ثلاث، سيجدها بالضرورة من الضحالة والعبث بمكان.

المساهمة الأولى:

قبل الاستقلال عن الاستعمار الإنجليزي في ١٩٦٧ بعام، وأنا في العاشرة من العمر، كنت شديد الإعجاب بمن يكتبون على الجدران عبارات تحريضيّةً لدعم الثورة المسلّحة، مثل: "برّعْ يا استعمار!"، أو شعارات تمدح أحد الحزبين الرئيسين اللذين كانا يتنافسان على قيادة الكفاح المسلح: الجبهة القومية لتحرير جنوب اليمن، وجبهة تحرير جنوب اليمن...

كنت من مشجِّعي الحزب الأول، لا أدري لماذا. مثلما كنت

من مشجّعي فريق "الواي"[1] ضد فريق الهلال، ومن مشجعي نادي الزمالك المصري ضد نادي الأهلي، وعبد الحليم حافظ ضدّ فريد الأطرش، ولا أدري لماذا في كلِّ الحالات.

ذهبت ذات ليلٍ بهيم مع صديقٍ لي، وأنا في العاشرة، بعد أن اشترينا علبة طلاءٍ أحمر، لنكتب شعارات على جدران المدرسة الابتدائية للبنات، المواجهة لحارتنا. كتبت هذين البيتين:

يا جبهة القوم ثبي الوثبة الكبرى فقد
اختلجتْ بنا القلوب فشدّي العزم وانتضلي
إنَّا وراءكِ شعبٌ تلك عزمتُهُ
فصافحي الشمسَ بيدِ المجدِ والأملِ!

تبدو لي اليوم أبياتاً مكسّرة تنتمي مباشرةً لشعرِ عصرِ الانحطاط. الشطر الثاني من البيت الأول مزدحمٌ جدّاً، فيه كلمات غريبة لا محلّ لها من القاموس العربيّ، كما أظنّ: "انتضلي"، "عَزْمتُهُ"...

لا يهم!... كتبتها وأنا أرتجف خوفاً من أن يراني جاسوسٌ يعمل مع الإنجليز، أو أن تمرّ دبَّابةٌ إنجليزيةٌ في الطريق المواجهة. (كنت نصف ملثَّمٍ يومها رغم أن ظلمة الليل كانت أفضل لثام!).

ظلّ هذان البيتان مكتوبين على سور المدرسة عقدين أو أكثر، قبل أن يتآكلا على جدارٍ تشرّخ وتجندَل، في حيٍّ غباريٍّ على وشك الانهيار...

استدراك: اسم هذه المدرسة، "٧ يوليو ١٩٩٤"، يمقته الجميع في جنوب اليمن لأنه يذكّرهم بيوم تحويل الجنوب إلى غنيمة حربٍ للقبائل المنتصرة في حرب ١٩٩٤، وبفتوى الشيخ الزنداني حينها

---

١ Y، بداية اسم الفريق بالإنجليزية.

بإحلال دم سكّانه للقبائل الناهبة.

يمقتون الاسم كثيراً لأنَّه فُرض بعنجهية المنتصر بدلاً من الاسم المدنيّ الراقي الذي يريده الناس: "مدرسة السِّت نور حيدر"، أوّل مُدرِّسة عدنيّة في تلك المدرسة. إنسانةٌ بديعةٌ مدنيّةٌ نادرة، أحببتها في طفولتي بشكلٍ خاص!

المساهمة الثانية:

في سنة الثانوية العامة والخدمة الوطنيّة، في منتصف سبعينيات القرن المنصرم، أسّست "حلقاتٍ ثقافيةً" تضمُّ طلاباً في نهاية المدرسة الإعدادية في الشيخ عثمان، بغرض تهيئتهم لدخول "الحزب الطليعي من طراز جديد، حزب العمال والفلاحين".

"استقطبتُ"، حسب مصطلح تلك الأيام، أربعين مرشَّحاً، من أفضل وأذكى الطالبات والطلبة، بينهم أختٌ لي وأخ.

صاروا جميعاً حينها "مناضلين طليعيين"، ماركسين لينينيين من الطراز الرفيع، لمدة عقدين. قبل أن يتحوّل بعضهم إلى ظلاميين من الطراز الرفيع أيضاً، في هذا الزمن الجديد؛ زمن انتصار الخراب والظلمات!

إذا قطّب "ملاك الثورات" يوم الحشر والبعث والنشور جبينه غاضباً من بؤس النتيجة، فسأقول له: "الحرب الروحية ضدّ الظلمات طويلة المدى! أعترف بالهزيمة، لكني لم أستسلم بعد حتّى اليوم!".

المساهمة الثالثة:

سأستهلُّ استعراض هذ المساهمة بهذه العبارة: "هي الأهم؛ هي التي ستشفع لي عندك، عزيزي الغالي، ملاك الثورات!".

أثناء سنة خدمتي الوطنية كمدرِّسٍ في إعداديّة الشيخ عثمان، كنت سكرتيراً ثانياً للمنظمة القاعدية للحزب الاشتراكي اليمني، في مدارس الشيخ عثمان والمنصورة ودار سعد.

سكرتيرتها الأولى كانت مدرِّسةً قديرةً مخلصةً نادرة: السّت خ. ش.

قرّرنا ذات يومٍ في منتصف سبعينيات عدن أن نمحو أميّة كلِّ "عمّال النظافة" في جميع مدارس منظمتنا القاعدية الحبيبة.

(كانت تسميتهم "أخدام" قبل الثورة. شريحةٌ اجتماعيةٌ مهمَّشةٌ محتقرَة، من أصولٍ شرق أفريقية سوداء في الغالب. صُنِّفوا بعد الثورة بـ"البروليتاريا الرثّة"!).

اتَّصلت جلالة السِّت خ. بإدارة التربية، لتجهيز خمسين نسخةً من كتاب محو الأمية.

عبارات ذلك الكتاب كانت ابنة عصرها الثوري، مثل: "العامل يقود الثورة"، "أنا فلاّحٌ ثوري"، تصاحبهما رسومٌ متواضعة لعاملٍ يحمل مطرقة أو "بانة"، وفلاّحٍ يقود محراثاً عليه صورة مطرقةٍ ومنجل!...

ذهبتُ من الشيخ عثمان بالباص إلى إدارة التربية في حيّ خورمكسر، في منتصف ظهيرة أكثر أيام عدن سخونة.

(يفصل الشيخ عثمان عن بقية أحياء عدن طريقٌ طويل يخترق

البحر، تحيطه من الجانبين مراتع بَحريّة فاتنة لطيورٍ مهاجرة).

أخذتُ الكتب بتاكسي إلى بيتنا، دفعت له الثمن من جيبي، بكل سعادةٍ وفخر!

نقلتها بتاكسي آخر في الرابعة عصراً إلى مدرسةٍ في أطراف ضواحي الشيخ عثمان ننظِّم فيها دروس محو الأميّة، قرب الخلاءات الرمليّة المؤدّية إلى البحر...

بدأنا، السِّت خ. وأنا، بتوزيع الكتب على طلبتنا الأحبّاء. تلاه أوّل الدروس.

أمامنا: نساءٌ ورجالٌ مسنّون مسحوقون هالكون، طحنتهم الحياة، يعيشون في أكواخٍ رثّةٍ خارج ضواحي الضواحي العدنيّة. قضوا كلَّ أعمارهم بين أقذرِ مجاري الكون وأشنع قماماتها وقاذوراتها. لم تلمس أصابعهم منذ طفولتها غير مكنسةٍ من سعف النخيل وزنبيلِ قمامات، لا تعرف كيف تفتح كتاباً أو تلمس قلماً!...

في السابعة مساءً، كنت كمن أدّى فريضة الحج في بيت الله الحرام، وكان يحلم بذلك منذ عقود. هرعت بعد الدرس أطير من الفرح لرؤية أصدقائي كالعادة، وتناول العشاء معهم في المطاعم الشعبية، وبدء سهرتنا في مقاهيها وفضاءاتها الرملية المجاورة.

كنت واثقاً أني عجّلت هكذا من انتصار الاشتراكية في العالم وهزيمة الرأسمالية!

عندما عدت إلى البيت في حدود العاشرة مساءً كانت تنتظرني مفاجأة.

كلُّ النساء اللواتي حاولت تعليمهنَّ القراءة مكتظّاتٌ في إحدى

غرف بيتنا، تتنقّل أمي بينهن لتهدئتهن بعطفٍ ورحمة. يبكين ويطلبن من أمّي أن تتوسّط عندي كي أعفيهنّ (وأعفي الرجال أيضاً) من حضور هذه الدروس، دون أن أقطع رواتبهم!

احتجت وقتاً كي أفهم ذلك، لأن هذه الدروس مبادرات شخصية لا غير من طالبٍ مُعدمٍ "ضبحان" بلا راتب، في خدمةٍ وطنيّة!...

*********

لم أكن، عزيزي ناهب الأرواح، لأتعرّف إلى "الدكتورة" (التي تتَّجه نحوها تشنّجات جسدي، بدلاً من هاوية) لولا حامد: صديقٌ عزيز جدّاً في مدرستي الثانوية كان يسكن في القسم الداخلي.

كم كنت أحسد أصحاب داخلية مدرستي الثانوية على حياتهم البوهيميّة الحرّة: لا يلتزمون لأحد، فيما نخضع لنواميس عائلاتنا المحافظة وقيودها الصمّاء!

الثانوية، التي تقع في خلاءٍ رمليٍّ في أطراف ضواحي عدن، بُنيت أيام الإنجليز بطرازٍ جذّابٍ حديث، على مشارف حيٍّ صغير: دار سعد، يتاخم الشيخ عثمان.

غير بعيدٍ منها فضاءٌ صحراويٌّ مجاورٌ فاره، تقع في وسطه "مدينة السيسبان": "أوّل مدينة علمانية في التاريخ"، كما كان يسمّيها طلاب القسم الداخلي!

كان لبعض أصدقائي في القسم الداخلي برنامجٌ يوميٌّ خاص: يبدأون بالدراسة الصباحية في المدرسة، يليه نوم القيلولة بعد الغداء

في الداخلية، قبل التوجُّه إلى السيسبان لقضاء حاجة جنسيّة عاجلة (يدفعون مبلغاً رمزيّاً مقابلها في آخر الشهر، عند استلام منحة الداخلية)، ثم التسكّع في بعض أحياء عدن (حيث يحيا الناس بالضحك ومن الضحك)، قبل العودة في المساء إلى حيّ "دار سعد" لتناول العشاء (دَيناً أيضاً) في أحد مطاعمه الشعبية، ثم العودة إلى الداخلية، التي لا ينغلق بابها، في آخر الليل، لقليلٍ من المذاكرة، بعد تسكّعٍ ليليٍّ لذيذ (هو أحلى لحظات عدن)!...

كان يمتعنا، يوم استلام طلاب الداخليّة رواتبهم الشهرية، منظر أصحاب المطاعم الشعبية وموسات السيسبان، وهم يأتون مع دفاتر الحسابات التي تحوي تواريخ ديون العشاء أو المناكحة، لاستلام صافي حقوقهم الماليّة من زبائنهم من الطلاب، قبل أن تتبدّد منحة المدرسة الداخليّة!

لغطٌ وشجارٌ ممتع (نهرول لسماعه ولَوكِه بعد ذلك في ثرثراتنا) عند أي خلاف على تاريخ وجبة أو مضاجعة لم يتم تسديد ديونها.

ظلَّ اسم السيسبان، التي لم أزرها، ميثولوجيّاً يثير الدوار والدوخة في ذهن طالب الثانوية الذي كنته، ذي السمعة الطيبة والتربية الدينية، وإن قطعتُ جذريّاً معظم علاقتي بمسلّمات تلك التربية والثقافة وعاداتها منذ الرابعة عشرة من العمر (بفضل كتاب بوليتزر، **أصول الفلسفة الماركسيّة**، الذي كان يُباع في كلِّ مكاتب عدن)، ودخلت منذئذٍ في شجارات وصراعات لا تنتهي مع والدي الحاج عبد الله عبد السلام!

السيسبان: اسمٌ موسيقيٌّ رنّان. هو أيضاً اسم شجرةٍ شديدة

الانتشار في عدن، تقاوم جفاف المدينة وشمسها الحارقة بنجاحٍ مستميت. مصنعُ ظلٍّ حميد. يعشقها كلّ العدنيّين ويجدونها تشبههم بشكلٍ أو بآخر.

كنت أريد زيارة السيسبان من باب الاستطلاع ربما، ولتقليد مغامرات صديقي العزيز في الداخلية ولو مرّةً واحدة.

"للجسد في سنٍّ ما حاجاتٌ عضويّةٌ مصيريّةٌ مدوّية. ظمأ ولهيب"، بحتُ بذلك لصديقي حامد الذي أخذني إلى السيسبان ذات عصرٍ عدنيٍّ بهيج.

بدت فينيسيا أحلامي، وأنا أقترب منها، حفنةً متناثرةً من أشجار السيسبان[1] لواحةٍ تصحّرت، تتخلّلها عششٌ متناثرة وخيمٌ خشبية هنا وهناك.

تحيطها "لوكندات" تخزين قات[2] لفقراء يلتقون، دون معرفة بعضهم بعضاً. يثرثرون، يحلمون، يضحكون حتى الثمالة من كل شيء ولا شيء. تعود مواضيعهم باستمرار إلى الجنس بالضرورة، في هذا الخلاء الرملي الذي يواجههم فيه:

فيلمٌ إباحيٌّ شاشته واحةٌ كاملة،
مملكةُ شهوات للطبقات المسحوقة،
متنفّسٌ غراميٌّ للبروليتاريا الرثّة،
عنابر جنسيّة للكادحين والمعدَمين، وحسُنَ أولئك رفيقا...

---

١ منها جاء اسم المجمّع: مدينة السيسبان.

٢ القات: أغصانُ شجرة تنبت في اليمن وشرق أفريقيا. يلوكها الناس ابتداءً من الظهيرة، في "جلسات تخزين" جماعيةٍ في الغالب.

كل خيمة عبارة عن جدارين خشبيين متقاطعين، يشكّلان أربع غرف تغلّفها أقمشة "الطرابيل" السميكة، لها أربعة أبواب خشبية، تُفضي إلى أربع مومسات مقرفصات أو مضطجعات، ينتظرن، في ضوءٍ خافت، زبائنَ من الثانوية المجاورة أحياناً، ومن كل أنحاء عدن وبقية اليمن الديموقراطي عموماً!...

خيبةٌ هائلة منعتني من مجرد الرغبة في البقاء طويلاً في هذه المعمعة:

لمحتُ شاباً يتلصّص من بعيد، عبر ثقبٍ في جدار إحدى الغرف. شيخٌ أعرج أيضاً يمارس نفس التلصّص في خيمة مجاورة. ينهرهما "المدير"[1] الذي لم تكن له هيئةٌ ملائكيّةٌ جذّابة، أوًحتّى الحدّ الأدنى من التماثل الهندسي في حجم وموقع عينيه في الجمجمة، وفي آليّة حركتهما أيضاً!

نصف الرفاق من أعضاء "منظمّتي القاعدية" الحزبيّة يعملون طوابير هنا وهناك أمام بعض الخيام.

أحدهم، من أعزِّ أصدقائي، هرب إلى عدن من شمال اليمن (حيث تنشر الصحف في واجهتها كلَّ يوم "الأهداف الستّة" للثورة اليمنيّة). كان يتمنّى حينها أن يكون "تطوير السيسبان" هدفها السابع. قبل أن نتمنّى معاً، لاحقاً جدّاً، في أوج زمن الحسرات، لو كان على الأقل هدفها الأوّل والأخير!

الأبشع: المومسات ينقصهنّ كثيرٌ من الجمال والأناقة. لواحدةٍ منهن أسنان ذهبية، تدخّن سيجارتها بشكلٍ فظٍّ مقرف. أخرى

---

١ أي: "الفتّال"، القوّاد.

أطراف أسنانها متفحّمة تردع كلَّ استيهامٍ إيروتيكي...

خلاصة القول: عشش وخيم السيسبانً، عزيزي مفرِّق الجماعات وهادم اللذّات، لا تشبه مقصورات الحور العين على ضفاف نهر الكوثر.

عطّفتُ لذلك أحلامي سريعاً، وطلبت من صديقي حامد مغادرة السيسبان!

قال لي صديقي العزيز هذه العبارة التي لن أنساها:

– أنت يا عمران، ما لك إلا الدكتورة!

لم أفهم. خشيتُ أنه يلوم عدم جرأتي على المغامرة، ويصنّفها بالخوف أو العجز!

لحسن الحظ أنه أضاف، وقد لاحظ وجومي وتساؤلاتي الصامتة:

– الدكتورة ليست مثل من رأيت. هي جميلة، رشيقة، في الثلاثين، من أصول حبشية، دمها "حالي"[1] بشكل...

– آه؟

ثم أضاف:

– ليس ذلك فحسب. الأهم، اسمها دينا، لكنها تصرُّ أن نسميها "الدكتورة". تعتبر عملها إنسانيّاً قبل كل شيء. لا تقبل المضاجعة دَيْناً: يلزم معها الدفع مقدّماً. (أسعارها مرتفعةٌ جدّاً). لكنها رقيقة، تجيد الحديث والتهيئة، كريمة، مهنيّة وشديدة العطاء... تمارس مهنتها "كمشروع إنساني"، كما تقول، بمحبّة خالصة!

"تمارس مهنتها كمشروعٍ إنساني بمحبّة خالصة!": عبارة

---

١ حلو.

أدهشتني، أسعدتني وشوّقتني بشدّة!

لم أعرف كيف أردّ، قبل أن يضيف:

- تأتي الدكتورة هنا إلى السيسبان أحياناً فقط، لزيارة بعض صديقاتها. أمّا مضاجعة الراسخين في العلم، و"تدريب وتنمية" الطلاب مثلي ومثلك، الذين لا يميلون كثيراً لهذه الأجواء المحمومة، فتفضِّله في مكانٍ منعزلٍ آخر أكثر أرستقراطيّةً من السيسبان...

تنفّستُ الصعداء...

عمل صديقي ما يلزم ("أدخلني التاريخ"، كما قال): رتّب لي موعداً ذات جمعة جمعاء، قبيل موعد ذهاب الجميع لصلاة الظهر، في

يومٍ من الدّهر لم تصنع أشعتهُ
شمسُ الضحى بل صنعناهُ بأيدينا

كما قال شاعر يمني!

يومٌ من الدّهر لم أصنع أشعّته بيدي، لأني كنت قلقاً خائفاً، غير قادرٍ على مواجهة هذا التحدّي التاريخي، في بيتٍ خافت الضوء شبه مهجور (في حي "الممدارة"، في طرفٍ آخر من ضواحي الشيخ عثمان) وفي وقت صلاة الجمعة، رغم تشجيع صديقي حامد الذي رافقني حتى ركن ذلك الشارع، وانتظرني هناك.

كنت أرتجف، في الحقيقة، وأنا أقرع باب الدكتورة!

يومٌ من الدّهر لم تصنع أشعتهُ شمسُ الضحى... بل صنعته الدكتورة بأيديها، بصوتها العذب الرقراق قبل ذلك، بوداعتها، بجمالها الحبشيّ، بدمها الحالي جدّاً، ببشرتها اللوزيّة التي تفوح منها روائح الفلِّ والقرنفل وزهورٍ بريّةٍ محليّة (لا عبق بِعبقِها)، بتهدئتها لي

كدكتورة حقيقية، بوجهها الحلو وجسدها الرشيق، وبثغرها الساحر ذي الأسنان الأفريقية البيضاء الناصعة الذي كان يكفيني يومها تقبيله فقط، لأشعر أني في ذروة السعادة.

(خفّضتُ هكذا سقف طموحاتي، أنا الذي جئت بحماسِ كاميكاز انتحاريّ ولهفةِ هاربٍ من سجنٍ مؤبّد!).

بعد أن قدّمتْ لي كأس "كندا دراي" بارداً، وفتحت لي مواضيع جعلتني أتحدث وأفقد قليلاً من ارتباكي، لاحظتْ أني رجمت نفسي في أحضانها لتقبيلها كما لو كنت أمثّل فيلم "أبي فوق الشجرة"!...

تردّدتْ قليلاً، ثمّ دخلت معي في لعبة القَبل، بطيب خاطر، كما لو كانت حبيبتي، في حين أن "المومسات لا يرطنّ لغة القُبَل"، كما يقول النظام الداخلي لأقدم مهنة يمارسها الإنسان منذ أزل الآزلين!

لاحظتْ أن القُبل تفيدني كثيراً في التخفيف من "الربشة"[1]. محفّزٌ كيماويٌّ لطالبٍ رهيفٍ تخيفه هذه الأجواء غير الأليفة. أضافت إليها لمسات ناعمةً ممغنطة، بأطراف الأصابع، تركّزتْ في طرفَي خاصرتي لا غير، ليهطل كل دمي نحو أرجاء تلك اللمسات السحريّة، قبل أن تقود الدكتورة العبقرية بقية رقصة الباليه، هي وحدها كما تشاء، وكما تجيد بمهنيّة وعذوبة لا حدّ لهما...

ثمّ قالت لي كلمات بهيجةً ميمونةً لا تأتي إلا من علماء الباطن ومروّضي الأرواح: "أنت حلو. لكنك لا تأخذ الحياة ريلاكس... خلاصْ، الجمعة القادمة، في نفس هذا الوقت، تجي عندي بالمجّان!".

---

١ الاضطراب

شلاّل سعادة جامحة، سيلُ هرمونات...

ثمّ "فقشت" بعدها عذريّتي. مرّ كل شيء أسرع مما تصورت، أقل استعراضاً ومتعةً مما تصوّرت، لكني كنت سعيداً أكثر ممّا تصوَّرت!...

"فقش" العذريّة، عزيزي ناهب الأرواح:
لحظةٌ ثوريّةٌ بامتياز،
جذرُ الثورات،
دخولٌ إلى التاريخ من أوّل وأقدس أبوابه.

كنت أتمنى أن أجري وأصعد فوق سور الثانوية باتِّجَاه مباني الداخلية، وأصرخ أمام أصحابي هناك: "وأنا أيضاً، وأنا أيضاً!". لا ينقصني بعدها إلا أن أنطّ إلى ساحة الداخليّة وأُدوِّي: "وسيفي كان بالهيجا طبيبا"!

عند وداع الدكتورة بقبلةٍ صغيرة في الثغر، مثلما يحصل في الأفلام، قالت لي هذه العبارة الخالدة: "صرتَ، حبيبي، رجلاً الآن، رجلاً مهمّاً!".

حالما خرجتُ من بيتها كنتُ خائفاً أن يراني قريبٌ أعرفه، فـ"أنتسفُ" من الخجل. أسأل نفسي: "ماذا لو رآني الآن الحاج عبد الله عبد السلام، أبي؟".

لا أحد. الشوارع قفراء. الجميع في صلاة الجمعة، ولله الحمد!

ثم هرعت أطير من الفرح باتجاه صديقي العزيز الغالي حامد الذي كان ينتظرني في ركن الشارع. (أطير بلا أجنحة، أمشي دون أن ألمس الأرض. الغربان والحمام تبتسم لي على الطريق. الفرّاشات

تحبُّني والعصافير). عانقتهُ بحرارة كما لو أني لم أره منذ عقود...

كان بودّي أن أعانق كلَّ سكان عدن؛ كلَّ الذين كنت أراهم يخرجون بعجلة من الجامع، بعد صلاة الجمعة، ويهرعون بتشنُّجٍ وعجل باتجاه سوق القات...

سعادةٌ حقيقية اكتسحتني طوال ذلك اليوم الخالد. شعرت بفضله أنني صرت أخيراً بالفعل رجلاً مهمَّاً جداً!

خلال يومين كنت أطير على بساطِ سحري. أفسِّر نظرات الناس لي بين لوم ("عيب! ألا تخجل مما عملتَ يا بلا أدب؟") وتهاني ("عارفين! مبروووووووك! نعيييييماً!").

لم أفقد القلق أمام الدكتورة، ولم أشعر بالنجاح الشخصي إلا في ثالث أو رابع مرّة ذهبت فيها لوحدي، دون علم صديقي العزيز، نحو ذلك البيت العتيق الذي تستأجره وبعض صديقاتها في أطراف الممدارة.

صرت رجلاً بحق في ذلك اليوم فقط، وصار موعدي الأسبوعي المدمن مع دكتورتي الحبيبة وقتَ صلاةِ الجمعة!...

# الفصل الثالث

إذا ما لاحظتُ أن سارق الأرواح يراقب ساعة يده ممتعضاً من إطالتي الحديث عن الدكتورة، فيما وافق على الإصغاء والردِّ على أسئلتي، شريطة أن تكون "هاوية" موضوعنا الواحد الأحد، فسأقول:

أستميحك العذر، صديقي الغالي "لاطش" الأرواح، لإسهابي في سرد قصتي مع الدكتورة، كي أقنعك بطهارة علاقتي اللاوعية بهاوية.

لعلي استغرقت في سردها وأخذت لحظاتٍ من وقتك الثمين، أكثر من اللازم بالتأكيد، لأن لا هدف لي في هذه الرواية إلا سرد هاويتها: هاوية، ابنة سوسلوف!

ثمّ اسمح لي قبل ذلك أن أناديك: صديقي. لأن كلماتي لا تنزف بهذا الصفاء وهذه الغزارة والبوح الكلّي إلا لصديقٍ حميم!

تدهورت فجأةً علاقتي بصديقي حامد الذي "أدخلني التاريخ" لأنه لاحظ انشدادي إلى الدكتورة، وتردّدي على مواعيدها دون إشعاره مسبقاً، ورفضي البوح والفضفضة بتفاصيل لقاءاتي بها، وبحواراتنا التي كان يعتبرها "حميمية خطيرة".

لعله كان يحبُّها بشكلٍ أو بآخر، دون أن يدري، أو لعله كان يشعر أني أحبها؛ شيءٌ ما يشبه الغيرة، لا أعرف!... صار ينظر إليّ في كلّ الأحوال بريبة. تتلوّى في أحاديثه معي عبارات تشكيكية لاذعة...

لم تخطئ شكوكه كثيراً. تطوّر وتعمّق إدماني على الدكتورة، لدرجة أني همست في أذنها ذات يوم:

- أحبِّك يا دكتورة!

ضحكتْ بلطف. ردَّت:

- لا يجوز ذلك، كتكوتي!

- لماذا؟

- أنت طالب صغير، فؤادي. ليس لديك حتّى ثانوية عامّة، وأنا دكتورة في الثلاثين من العمر!

أبديت امتعاضي من ردِّها. وضعتْ أصابع يدها في شَعري كي تُبَدِّد برطمتي، ثمَّ سألتني، هي التي تعرف كم غدوت أحبُّ أن أتغنّى بها بصدقٍ وإخلاص:

- في ماذا أنا دكتورة في رأيك، حبيبي عمران؟

- في الرسم، الموسيقى، الفنون الجميلة...

(قبّلتُ أناملها. آه ما أندى أطراف أناملها!).

عادت علاقتي بحامد رويداً رويداً، لأن علاقتنا معاً بالدكتورة انتهت بشكلٍ تراجيديٍّ مؤلم، وفي نفس الوقت أيضاً!

إذا ما سألني مُنهي الملذّات: "لماذا؟"، فسأسرد له تفاصيل الكارثة:

ذات فجرٍ من بدء "مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية" اليمنية (في

الساعة الرابعة تحديداً) جاءت قوات "أمن الدولة" واختطفت كل مومسات السيسبان في نفس اللحظة، في كلِّ حيٍّ خارج السيسبان أو داخله، وأخذتهن معاً، ليس إلى السجن (لأنهن من وجهة نظر الثورة "مسحوقات"، من "ضحايا استغلال الإنسان للإنسان") ولكن إلى... مصنع لعلب مسحوق الطماطم اسمه "مصنع الفيوش للطماطم" تمّ بناؤه في واحة نائية، على بعد حوالي ٤٠ كيلومتراً من عدن، كيما يصبحن هكذا شغيلة هذا المصنع، "طبقته العاملة" (كان لهاتين الكلمتين في تلك الأيام إيقاعٌ مقدّسٌ مهيب). أي: "بروليتاريا" يساهمن في "الصراع الطبقي" لبناء اليمن الديمقراطي الجديد!

أما "الشوّاذ الجنسيّون" (حسب التسمية الرسمية) من الرجّال فقد تمّ اختطافهم ونقلهم إلى جزيرة سوقطرة!...

ربما قامت تلك "الحملة" تأثّراً بالثورة الثقافية الماويّة أو لا أدري بأي أفكارٍ ثوريّة، ربما كانت مشروعاً بريئاً، حلماً جميلاً، قراراً طائشاً معتوهاً، لكنه كان قراراً قاتلاً بالنسبة لي، ولبعضٍ من طلاب ثانويتنا وقسمها الداخلي.

"حقدتُ" بسبب ذلك على هذه الثورة التي أحببتها من كلِّ قلبي، مع ذلك، وتفاعلت معها بحماسٍ وإخلاص، لاسيّما أن "الرفيقة دينا" لم تكن في نظري مومسةً أجبرها "الاضطهاد الطبقي على بيع جسدها لكسب قوتها"، حسب التفسير الثوري الرائج، بل كانت "دكتورة" لا أروع ولا أرقّ؛ دكتورة في الفنون الجميلة. أطراف أصابعها تسيل شعراً وموسيقى.

تفحَصُ جسدي من طرفه إلى طرفه بمعرفة علميّة باهرة. "تُفتِّح كلَّ شرايينه" حسب تعبير صديقي حامد. تعزفُ عليه كبيانو، تُناغِم تشنّجاته بعنايةٍ وحبّ. مهرجان سعادة. علَّمتْ نخاعي الشوكي كيف يقرأ نوتات أطراف أصابعها، كيف يرقص...

لها "مشروعٌ إنسانيٌّ" في الحياة تعمل بصدقٍ ومحبّةٍ وإخلاصٍ له ومن أجله.

كلّما زاد شوقي للدكتورة دينا، زاد حقدي على "الثورة الوطنية الديمقراطية".

لم أعد هكذا أرى الدكتورة، ولم يعد يراها صديقي حامد. لم يعد يغار أحدنا من الآخر. عادت علاقتنا كما كانت تقريباً.

كنّا نتجنّب الحديث عن الدكتورة، وإن كان يقتلنا ظمأٌ عنيفٌ إليها، لاسيّما في الأشهر الأخيرة من الثانوية العامّة.

ثمّ شعرت بالغيظ الغيور من حامد، عندما أفضى لي ذات يوم أنه كلما مسّ علبة مسحوق الطماطم، مصنوعةً بأصابع بروليتاريّات مصنع الفيوش، شعر بتماسٍّ كهربائي أسفل سُرّته، بشحنةٍ تعبر جسده، بتشنّج مفاجئٍ في قضيبه، وبرغبة جنسيّة عارمة.

قالَ: يا أخي، لا أدري لماذا كلّما أفتح علبة مسحوق طماطم أتهيّج كليّاً، يرتكز ذَكري بتشنّج عجيب!

انتهت علاقتي بحامد منذ هذه العبارة تقريباً!

في نهاية الثانوية العامة اشتقت للدكتورة كما لم أشتق لأحد. كم كنت أحتاج إليها في تلك الأيام الدراسيّة الكالحة!

لكلِّ ذلك، عزيزي قابض الأرواح، كان جسدي ورغباتي، أثناء نومي على سطح بيتنا في عدن، يتّجه كلّياً إلى مصنع الطماطم، على بعد أربعين كيلومتراً من المدينة!

أما وجه فاتن، عفواً عزيزي سارق الأرواح: هاوية، فكان أيقونتي الدينية التي تملأ السماء. أنظر إليه بقدسيّة، أحدّق فيه طويلاً، أُسبِّح له وأعبده...

عندما أستحضره قبيل النوم تصعد إلى عينَيّ كل الأدمع الجوفيّة التي كانت تنساب بصمت في "دكان الأعمى"، دون أن تراها هاوية.

يهزّ قابض الأرواح العزيز رأسه بتعاطفٍ وحنانٍ أعفياني من قول هذه الكلمات التي كانت على طرف لساني:

اعذرني مجدّداً، حبيبي عزرائيل، إن ابتعدتُ قليلاً عن مربط فرس سردي وتساؤلاتي: هاوية. لعلّي رسمت لك، بفضل ذلك، السياق السياسي والزمكاني الذي نشأتْ فيه، وبعض يوميات فريدة لـ"مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية" أخشى أن تكون قد نسيتَ كثيراً من أحداثها الآن، لأنها تفصيلٌ سفسافٌ ساذج مقارنةً بما تراه وأنت تعبر قارّات التاريخ ومنعطفات الجغرافيا لشفط أرواح البشر.

قطرةٌ لانهائية الصغر في محيط عوالمك الزمكانية التي لا يتوقّف تشعّبها واتساعها وتكاثرها وتعقيدها منذ أزل الآزلين إلى أبد الآبدين!...

# الفصل الرابع

منشور من حائطي في الفيسبوك:

ع. إ.، الموظف المسؤول عن قسم المنح في وزارة التربية والتعليم بعدن، في سبعينيات القرن الماضي، كان من أروع من أحبَّه طلاب ثانوية جِيلي.

عدنيٌّ جدّاً في هيئته ووسامته، في ابتسامته، في هزله، في حبّات "التُّمبُل"[1] التي لا تفارقه، وفي حماسه لمباريات كرة القدم في "ميدان الحُبيشي" في حيّ كريتر، لاسيّما إذا لعب فيها فريقه المفضَّل: "فريق الحُسيني"، أو عدوُّه اللدود: "فريق الأحرار".

عرفت أنّ من يريد مقابلته، وهو "مفتَهِن"[2]، عليه الذهاب إلى مقهى مجاور للملعب، في ميناء صيادي صِيرة بكريتر، عقب مباراة كرة قدم ينتصر فيها فريق الحُسيني أو ينهزم فيها فريق الأحرار. (كان

١ التُّمبُل هو "البان ماسالا" الهندي. وريقةٌ نباتيةٌ خضراء محشوّةٌ ببعض البهارات الهندية الحلوة اللذيذة كاليانسون ومسحوق النارجيل، يلوكها العدنيّون بين الآن والآن.

٢ مفتهن: رائق البال.

شديد الاقتصاد في الحديث وهو في مكتب الوزارة).

ذلك ما حاولت عمله ذات يوم بعد الثانوية العامة (في أيام الخدمة الوطنية، حيث كنت أدرِّس الرياضيات لصفّ الثالث الإعدادي في "إعدادية الشيخ عثمان")، عندما أردت أن أعرف هل تَقرَّر بعثي لمنحةٍ دراسية إلى فرنسا أم إلى ألمانيا الديمقراطية (كنت مرشّحاً للبلدين).

لحقتُه وهو يغادر الملعب مع أحد مشجّعي فريقه الحبيب، يحاذي المبنى المهيب لـ"المدرسة العليا للاشتراكيّة العلمية" في طريقه إلى ميناء صيرة.

هرعت إلى المقهى كي أسأله عن مصير منحتي، بلهفةٍ وربشةٍ لاحظهما سريعاً. كان أنيقاً، في أوج سعادته بانتصار فريقه المفضّل على خصمه اللدود يومذاك.

هدّأني، دعاني إلى كوبٍ من الشاي يصعب رفضه في تلك اللحظة العذبة الساحرة التي تغرب فيها شمس صيرة خلف جبال شمسان المواجهة للميناء. ثمّ سألني:

– إذا خيّروك يا ابني بين ألمانيا الديمقراطية وفرنسا، فماذا ستختار؟

– فرنسا!

– لماذا؟

– لأني أعشق منظر الغروب!

– عفواً، لا أفهم!

– أريد مشاهدة غروب الرأسمالية بأم عينيّ، أما الاشتراكية

فسيكون لي ما تبقّى من العمر لأساهم في بنائها!

(كنا نسمع يوميّاً في وسائل الإعلام، ونعتقد بشدّة، أن سمة عصرنا الراهن هي "أفول عصر الرأسمالية وشروق عصر الاشتراكية").

ابتسم الأستاذ ع. إ، ثمّ ضحك قليلاً. ضحك أكثر فأكثر. كاد "يشترغ" من الضحك! (مسحةٌ أرجوانيّة من "التمبل" كانت تغلّف لسانه).

لم يشرح سبب ضحكه أو ما يدور في خلده.

بعد أن استعاد هدوءه، قال لي:

- لا تقلق!

ثمّ أضاف:

- لي طلب منك يا ابني، لو سمحت!

- ما هو؟

- في يوم ما، إذا استرجعت ذكرى حديثنا هذا فاكتبه كما حدث، قائلاً إني ضحكت من أعماقي بعد ردّك، ضحكت كثيراً جدّاً، بغزارة!

*********

مهلةٌ جديدةٌ أخرى عزيزي قابض الأرواح. لا يمكنني الحديث عن ابنة سوسلوف دون الحديث قبل ذلك دقيقتين أو ثلاث عن نجاة التي تعرّفت عليها في باريس.

لم يكن وصولي للدراسة في باريس منعطفاً في حياتي، ولكن:

بيغ بونغ، ارتجاجٌ كونيٌّ.

بداية حياة ثانية!

كل شيءٍ فيها: جمالها، ليلها، نهارها، أنوارها، ثقافتها، تاريخها، لغتها، متاحفها، بشرها، شوارعها، مطاعمها، مقاهيها، كنائسها، أنهارها، شواطئها، جسورها، كلّ معالمها... أسرني، واندمجت فيه رويداً رويداً، بحبٍّ خالص.

هومو(يمَن)انس يتحوّل إلى هوموسابيانس[1] وهو يذوب في لغة وحياة عاصمة الثقافة والفن والحب. المدينة الكونيّة الواحدة الإحدى التي أعادت صياغتي كليّةً من جديد: باريس.

حال وصولي إليها شعرت أني أنسجم معها كما لو كنت قد عشت فيها منذ ولادتي.

لمجرّد أني كنت أذوق بعض وجباتها لأوّل مرّةٍ في حياتي، كان يداهمني أحياناً إحساسٌ غريب بأنها كانت وجباتي المفضلة في حيواتٍ سابقة. أتذوّقها بشوقٍ ولوعة، بحنين من افتقدها منذ عقود، منذ دهر!

الأغرب: لم يبعدني هذا العشق الجديد، العنيف جدّاً، عن عشق عدن، وتذكُّرها الدائم، والتفاعل مع أحداثها وعاداتها وتقاليدها. مع كلِّ يوميّاتها.

بقدر شدّة اندماجي بباريس، ازداد استيطان عدن لي. كلُّ منظرٍ أو حدثٍ أعيشه في باريس يذكّرني بحدثٍ أو منظرٍ مخالفٍ أو معاكسٍ

١ هوموسابيانس: الإنسان الحديث، آخر الأنواع البيولوجية الإنسانية في نظرية التطوّر الداروينى.

في عدن؛ بفراغ ما فيها؛ بجرح ما في يوميّاتها لا يندمل غالباً...

ثمّة تيارٌ ما يمرُّ في كلِّ لحظةٍ بين قطبين موجب وسالب: باريس وعدن، حيناً؛ عدن وباريس، حيناً آخر.

منذ بدء دراسة اللغة الفرنسية في باريس، ومنذ أول محاضرة في كليّة الآداب في الجامعة، كان العشق والحظ والسعادة ينتظرونني بالمرصاد.

عشقت كلَّ شيء عشقاً صوفيّاً: الصحف والمجلات، والأدب الذي كان ملاذي وشغفي الدائم منذ الصغر، لاسيّما ملِكته في عصر الحداثة، في فرنسا على وجه الخصوص: الرواية. عشقت الفلسفة والانثروبولوجيا، وكلَّ أخبار جديد العلم والتكنولوجيا أيضاً...

لكني عشقت، أكثر من كلِّ ما في الوجود، فتاةً تعرَّفت إليها في أوّل محاضرة لنا في كليّة الآداب (أغلبية طلابها بناتٌ يفتحن النّفس). لا جمال ولا روعة بجمالها وروعتها: نجاة (من أبٍ يمنيٍّ وأمٍّ فرنسيّة).

الصدق والتفاني والإخلاص في منظومتها غرائز جينيّة!

هرعت نحوها وهرعت نحوي، من أوّل محاضرة، بكلِّ ما في العشق من خفقات وأحلام ورغبات ومشاريع مصيريّة.

خُلقتُ لنجاة وخُلقت لي. نخفق بنفس الإيقاع. ندرس معاً... لنا منحٌ وظروفٌ ماليّةٌ طيّبة. نشتغل بالإضافة إليها أحياناً هنا وهناك، لنتمكّن من مزيدٍ من الكسب، يساعدنا على مزيدٍ من السفر الدائم واكتشاف العالم.

ناهيك عن أن نجاة تتقاسم معي عشق الثورات والحلم بعالَمٍ

جديد، بنفس الغرام الصوفيّ العارم الساذج...

تغيّر في الحقيقة مفهوم الثورة بالنسبة إلي منذ وصولي إلى فرنسا وعلاقتي بنجاة. أقنعتني، بعد نقاشاتٍ طويلة وجدلٍ لم ينتهِ وصراعاتٍ حادّةٍ أحياناً، بزيف مفهوم الثورة من المنظور السوفييتي، وعدائه للحريّة والديمقراطيّة. (كنتُ ستالينيَّ النخوة بلا وعي، وإن كنت ألوِّح يوميّاً بعدائي الشديد وإداناتي للستالينيّة).

تغيّرتْ بفضل نجاة الكلماتُ التي تؤثّث قاموسي السياسي الأثير، ويخفق لها قلبي في صيغته الثورية الجديدة:

أخذ "اليسار" محل "البروليتاريا"، "الديمقراطية" محلّ "المركزية الديمقراطية"، "التحوّلات الاجتماعية العميقة" بدلاً من "الانتفاضة"...

إذا ما قاطعني صديقي ملاكُ الموتى بسؤالٍ حاف: "كيف حصل ذلك؟"، سأردّ:

أعترف لك عزيزي الغالي:

لم يكن ذلك سهلاً لمن اعتنق في عدن دِينَ الماركسيّة اللينينيّة بفضل كتاب الفيلسوف الفرنسي بوليتزر (عبارة عن مواد دراسيّةٍ مبسّطةٍ سهلة، لخلايا الشيوعيين الفرنسيين في الخمسينيات من القرن المنصرم، في عزِّ أيّام الستالينية).

شهَّدتُ وكبَّرتُ عند قراءته، في الرابعة عشرة، حالما وصلت إلى درس القانون الثاني في الديالكتيك: "التراكمات الكميّة تؤدّي إلى تحوّلٍ نوعي"، وهو يستشهد كمثال بالتحوّل النوعيّ للماء من سائلٍ إلى بخار:

يقول الدرس ما معناه: يظلُّ الماء سائلاً عندما تكون درجته ١، ٢٠، ٦٠، ٩٠، ...، ٩٨، ٩٩. ثمّ تأتي الدرجة الطفرة، درجة "النقلة النوعيّة"، سيّدة الدرجات، الدرجة المائة، لتحوِّله إلى بخار.

كذلك حال الانتقال من الرأسمالية إلى الاشتراكية: غليانٌ ثوري متواصل حتّى الوصول إلى الدرجة المائة التي تسقط بعدها الرأسمالية بالضربة الحاسمة القاضية، ويبدأ عصر الاشتراكيّة!...

أمسيت بعد ذلك مبهوتاً بهذه الدرجة المائة، غُرّة وطليعة وفارسة الدرجات، مفتاح "المستقبل الثوري"، باب الجنّة. ثمّ عاشقاً لها. صارت مبتغاي الصوفيّ، مثل طير السيمرغ، مثل الاسم المائة!

من غَيرُ نجاة كان يستطيع نسف هذه القناعات الدينية الماركسية اللينينية، وهي تقول لي بألمعيَّتها ورقَّتها المتعانقتين معاً على الدوام:

– لو كنتُ ماءً لما أحببتُ التحوّلَ إلى بخارٍ تحت النار. أكره النار!... كنت سأفضِّل التحوّل إلى بخارٍ تحت أشعة الشمس، في الهواء الطلق، مثل مياه البحار.

رفعتُ قبّعتي! طلّقتُ الستالينية إلى الأبد، وتحوّلتْ علاقتي بالثورة كعلاقة الشمس بالبحر!

صار حجُّنا السنوي "عيد اللومانيتيه"[١] حيث ننام هناك في خيمةٍ

---

١ العيد السنوي لصحيفة الحزب الشيوعي الفرنسي. تقليد فرنسيٌّ عريقٌ. ٣ أيّام في النصف الأوّل من سبتمبر، في ضواحي باريس، يحضرها بشرٌ من كل أطياف المجتمع الفرنسي، ما يقارب المليون أحياناً، وبشرٌ من كل أنحاء الأرض... فيها خيام لكلِّ دول العالم، ونماذج من منتجاتها ومطاعمها... يمتلئ العيد بنشاطات ثقافية وسياسية متنوّعة، وندوات تضامنية مع كل القضايا العادلة في العالم، لاسيّما فلسطين.

صغيرة. نزور كل مقصورات دول العالم، نتفاعل مع الجميع... نرقص ونغنّي كلَّ الأغاني الثورية الحديثة والقديمة مع كلِّ الفرق الموسيقية، وفي كل الخيمات الأممية، في جوٍّ إنسانيٍّ يُسكرنا ويأسرنا بشدّة...

بؤرة لحظاته الحاشدة: ظهيرة الأحد، الحفل الخطابيّ والموسيقيّ الشاسع، في الساحة الكبرى للعيد.

ترتفع أيدينا لترديد "نشيد الأممية" هناك، مع مئات الآلاف في نفس الوقت. تخوننا، نجاة وأنا، وسط هذا الهدير الإنسانيّ، بعضُ الدموع أحياناً.

ننسى تماماً في معمعان سكرة العيد أننا في زمنٍ جديدٍ تتطاير فيه أطنان الدولارات؛ تديره، أكثر من أي وقتٍ مضى، قوى المال والبنوك والبورصات التي فرضت إلهها على البشرية جمعاء: اقتصاد السوق. (الجميع يسبِّح بحمده ويركع له، الجميع بلا استثناء).

أنانيتها المفرطة تخنق الإنسان وتهدِّد بالإطاحة بالمستقبل البيئي لكوكبنا بشكلٍ نهائيٍّ حاسم!

ننسى كلَّ هذه الهزائم المدويّة، نحتفل ونرقص كثيراً، بانتظار غروب عصر الرأسمالية واستغلال الإنسان والأنظمة الديكتاتورية، وبدء عالم جديد، عالم العدالة والاشتراكية والأنوار.

عالم "الإنسان الأعلى"، إنسان نيتشه، في "جمهورية أرخبيل الكوكب الأزرق"، كما نحبُّ، نجاة وأنا، تسمية كرتنا الأرضية، معمورةِ المستقبل!...

نجاة حالمةٌ جداً مثلي، شاسعة البراءة والإخلاص، عشق حياتي

الذي لن يجد إنسانٌ عشقاً صادقاً نقيّاً مثله. ملكة ملكات الكون. ملكة جماله بامتياز. إلهتي الوحيدة.

أعشقها، كما تعرف صديقي الغالي قابض الأرواح، بوهجٍ لن يتوقّف يوماً...

يجمعنا كلُّ شيءٍ تقريباً، من الدراسات الأدبية المشتركة (شغفنا المتأصل)، حتّى عشق المطاعم وتذوّق الوجبات المتنوّعة. تكفي رؤية نجاة وهي تلتهم "فواكه البحر" بالشمبانيا ببطءٍ وذائقةٍ وتلذّذ وحميميّة، وتتحدّث في هذا الموضوع أو ذاك، في جوٍّ موسيقيٍّ اختارته لينسجم مع اللحظة والمكان، لإدراك علاقتها الرهيفة العميقة بالحياة والفن والجمال...

يعود إليّ منظرها الآن، ونحن الاثنان نحتفل بعيد ميلادها العشرين في شرفة مطعم في جزيرة كورسيكا، في ١٢ مارس ١٩٨١. هي أمامي، يتلألأ خلفها البحر. سفنٌ عملاقةٌ مسافرةٌ إلى جزيرة ساردينيا الإيطالية وجنوب فرنسا في الغرب، ومئات السفن الشراعية في الشرق. زرقةٌ نقيّة تواجهنا، جبالٌ بعيدة.

فرقٌ من طيور النورس تسرح وتمرح وتزعق بنشاط لا يكلّ. منقار نورس يحطُّ على السور الخشبي خلف بشرة ساعدَي نجاة (دوارٌ خفيفٌ دائم كلّما أنظر إليهما، دوخةٌ لذيذة).

شمسٌ ربيعية. أغلق عينيّ لأشرب ضياءها وهو يحتضن نجاة أمامي تحكي وتناقش بحيويّةٍ وشغف (لا يُسكرني شيءٌ في الوجود مثل صوتها)...

أستحضرها بعد ١٠ سنوات من ذلك (هي مديرة قسمٍ في الجامعة،

وأنا باحثٌ في مركزٍ أكاديميٍّ قوميّ)، ونحن نحتفل بعيد ميلادها الثلاثين في شرفة مطعم فندقٍ متاخمٍ لقلعة صلاح الدين بطابا، في سيناء (حجُّنا الدائم، فينيسياؤنا الأثيرةً).

تحيطنا صحراء الأنبياء والشعراء. جبالٌ غبراء بعيدة، بنفس لون جبال عدن التي طالما تجوّلنا في قممها نحن الاثنان. خلف نجاة خليج سيناء. زرقةٌ خرافية. حقول الشُّعَب المرجانية تبدو، من عمق هذه الزرقة الشفّافة الفريدة، جليّةً للعين المجرّدة.

غروبٌ صحراويٌّ مقدّس. إلى الجنوب منّا: طور سينين (حيث صعدنا لرؤية الغروب ونمنا هناك، عدّة مرات)، موسى، الوهج المقدّس، النقطة التي تعانقت فيها السماء السابعة والأرض دون وسيط...

يجمعنا قبل هذا وذاك: البحر. كلانا عاشقٌ مهووسٌ بالأمواج والسباحة في البحار الدافئة. نجاة أجمل سمكات الكون، لا تتنفّس مثلي إلا داخل الماء. إذا ابتعدنا عنه كثيراً أُصبنا بالتخثُّر والاختناق.

شواطئ عدن لنا وحدنا في الغالب. قضينا في جزيرة عمران أجمل أيام حياتنا وأكثرها حميمية.

نجاة وأنا مهووسا ثقافة. مغرمان ولا شكّ بالأفلام، السينما، الصور الافتراضية، التمثّل الكمبيوتري (علوم الظاهر، كما تسمّيها نجاة). لكننا نعشق بشكلٍ خاص: القراءة، الكتابة (رائحة الأوراق والحبر)، الفن التشكيلي، الموسيقى، المسرح... "علوم الباطن، الوحيدة التي تمسك بتلابيب كبد الآلهة"، كما تقول أيضاً!

طُفنا، نجاة وأنا، ثلث الدنيا قبل إنجاب الأطفال... كان بودّي

أن أضيف إلى هذه العبارة ما حلمتْ نجاة أن نقوله، ذات يوم، بعد ٣ عقود من بدء حياتنا المشتركة:

"طفنا ثلثها الثاني مع الأطفال، وسنطوف ثلثها الثالث معاً في ما تبقّى لنا من عمر!".

(نجاة من عائلةٍ يُعمَّر أهلها طويلاً، أباً عن جد، بشكلٍ ملحوظٍ مثير!).

يؤسفني (ضئيلةٌ هذه الكلمة، من الحماقة بمكان، لا نهائيّة الضعف والوهن) أنني لن أستطيع قول ذلك:

تعطّل المشروع، كما تعرف أكثر من أيٍّ كان، عزيزي الغالي قاتل الأحلام والسعادات!

السبب: محطة مترو سانت ميشيل في قلب الحيّ اللاتيني بباريس (التي لم أعد أقترب منها)!

التاريخ: ٢٥ يوليو ١٩٩٥ (الذي لا أطيق مجرّد ذكره)، في تلك الحقبة التي كانت باريس ترتجف خلالها هلعاً من تفجيرات السلفيين الإرهابيين، في معمعان "السنوات الجزائرية السوداء"!

كنتَ هناك، عزيزي عزرائيل، "تحصد" وتلتقط أرواح من شرذم بأمتعتهم وبعثر بأشلائهم وأحرق جماجمهم انفجارُ عنقود قنابل "زُرعت" في ممرٍّ ضيِّقٍ مزدحم بركّاب المترو، داخل كيس قمامة. (حتّى استعارة "الزراعة" في لغتنا طُعنت في الظهر!).

كانت نجاة في المحطة عائدةً من "شارع المدارس" في الحيّ اللاتيني، بيدها كيسٌ فيه بضعة كتبٍ اشترتها من مكتبة جوزيف جيبير القريبة من مترو سانت ميشيل في الحيّ اللاتيني، قلمُ حبرٍ ثمين،

وسربٌ من أقلام الرصاص (تعرف كم أحبّ أقلام الرصاص).

وفي بطنها طفلنا الأول في شهره الخامس: بنت. احترنا في تسميتها: شهرزاد أم هيلين!

تفصيلٌ تافهٌ جدّاً: كنت أنتظرها في البيت، أطبخ لنا، في جوٍّ موسيقيٍّ يمنيٍّ بهيج، وجبةَ الزربيان اليمنيّة (صيغةٌ عدنيّة من وجبة البيرياني الهنديّة) واثقاً من أن احتمال الوقوع في شرَك المتفجّرات الإرهابية لا نهائيُّ الصِّغر. لا يصيب إلا الآخرين فقط، في كلِّ الأحوال!...

بلمحة بصر تدحرجتُ من النعيم المطلق إلى الجحيم المطلق.

تعطّل جزءٌ من دماغي يومذاك إلى الأبد.

توقّف جزءٌ من حياتي يومذاك إلى الأبد.

دعني أتوقّف عن الحديث، عزيزي ناهب الأرواح، بضع دقائق.

في صدري، كما تعرف، ألمٌ عطنٌ سحيقٌ متخثّرٌ لن يتوقّف نزيفه، وبركان تقزّزٍ وحقدٍ بحجم محيط الظلمات!...

# الفصل الخامس

منشور من حائطي في الفيسبوك:

اليمن الديمقراطي يحكمه في بدء السبعينيات شبابٌ دون تجربة، دون تأهيلٍ أيضاً، لكنهم على ثقةٍ مطلقة أنهم أفضل نظام عربي، يسيرون في "اتجاه سمة العصر"، منفتحون على العالم والمستقبل، يعبرون جسراً اسمه "مرحلة الثورة الوطنية الديمقراطية" ينقلهم من "مرحلة الإقطاع" إلى "مرحلة الاشتراكية"، دون المرور بمرحلة الرأسمالية!

بعد ما بين ١٥ و ٢٥ سنة (حسب آراء المؤدلِجين الذين كانوا يحبّون كثيراً حينذاك الجدل النظريّ الاستشرافي، أو قراءة الفناجين بمنهجٍ ماركسيٍّ لينيني) سيبدأون "عصر الاشتراكية" في مجتمعٍ خالٍ من استغلال الإنسان للإنسان (بفضل دعم الرفاق السوفييت)...

لأن "سمة العصر هو انتصار الاشتراكية وهزيمة الرأسمالية"... صدق الله العظيم.

*********

منذ وصولي باريس، وفي كلِّ إجازة صيفٍ أتوجّه فيها مع نجاة إلى عدن كنت أتساءل عمّا صارته هاوية.

توفّي العم سيف العريقي وحلّ محله ابنه الكبير، البصير جدّاً، علوان. ولم يعد دكّانه لذلك مرفأً آمناً للقاء حبيبين (وإن لم يلفظا عبارةً واحدة يودِّع بها أحدهما الآخر قبل سفره للدراسة).

في كل الأحوال، لم تعد أمّ هاوية، فيروز، تحنّ في الأساس إلى المجيء إلى شارعنا الرثّ القديم، مسرح طفولتنا المشتركة، في الشيخ عثمان.

صارت فيلتهم الفخمة الجديدة، في حيّ خورمكسر الراقي البعيد، صعبة الاقتراب لازدياد أهميةِ سوسلوف في القيادة السياسية والحزبية اليمنية الديمقراطية (عضو مكتبٍ سياسيٍّ مرشّح في الحزب الحاكم)، وتكاثرِ الحديث عن مواهبه الدبلوماسية الكيسنجرية (الجروميكوية كما يلزم القول، نسبةً إلى مومياء وزارة الخارجية السوفييتية آنذاك، أندريه جروميكو)، واحتمال ترشيحه القادم ليكون وزير الخارجية، ووصوله المؤكّد القريب إلى المكتب السياسي في المؤتمر الحزبي القادم للحزب "الذي لا صوتَ يعلو فوق صوته".

كلّ ما عرفته أن عائلة سوسلوف مرتبطةٌ كثيراً بدعوات ولقاءات ونشاطات عائلات كبار المسؤولين السياسيين والحزبيين ويومياتهم وصراعاتهم المتشابكة؛ بسفرات رسميّة؛ وأن طفلتهم الوحيدة، هاوية، تتخبّط في هذه الدوّامة؛ وأنهم على وشك الانتقال إلى فيللا أكثر أرستقراطيةً تنتصُّ على جرفٍ عالٍ يواجه البحر، في حيِّ التواهي الأكثر بعداً...

كانت الحياة العدنيّة يومها، عزيزي قابض الأرواح، تميل إلى المدنيّة والحداثة: المرأة تلبس الملابس المدنية، تتعلّم، تعمل، تساهم في أعلى القيادات... التعليم مختلط. الكتب، لاسيّما "التقدميّة والثوريّة"، في كلِّ مكان... يضبط الحياةَ الاجتماعية قانونٌ مدنيٌّ متقدّم: "قانون الأسرة"، يعطي المرأة حقوقاً هامّةً ملموسة.

بإمكان الطالب السفر للدراسة الجامعية في الدول الاشتراكية بسهولة. الأولويّة لأبناء الطبقات "الكادحة". أي: لنوعيّة "الانحدار الطبقي" المكتوب في استمارات الترشيح، علماً أن معايير الغنى كانت واطئةً جدّاً، غير أليفة:

في بلادي برجوازي    من معه بير ارتوازي

كما قال حينها شاعرٌ شعبي.

الأعين تنفتح على الحداثة. كلُّ جديدٍ في العالم يجذب الناس...

كان هناك مثلاً مصنعٌ وطنيٌّ للبيرة: مصنع "صيرة"، باسم القلعة الشهيرة في ميناء صيرة بحيّ كريتر. وكان من الحداثة بمكان، ومن السهل جدّاً، احتساء الكحول في بارات المدينة بِحُريّة.

المثير: يطلب البعض من نادل البار أن لا يأخذ قنّيناتهم الفارغة عن طاولاتهم قبل مغادرتهم البار: كلّما زاد عدد الضحايا من القنينات وبدت استعراضيّةً للجميع، زاد الإيمان بانتماء السكران إلى الحداثة والفكر التقدّمي!

(في ذلك الوقت نفسه كان هناك عسكريٌّ قبليٌّ شهير في شمال اليمن، مهرِّب كحولٍ حينها عِبر باب المندب، في طريقه لأن يصبح رئيس الجمهورية العربية اليمنيّة: شمال اليمن!).

الأغرب: لم يعد البعض يفصل بين "تباتيك"[1] الحداثة هذه أو تلك:

ثمّة، في بعض الأحيان مثلاً، صدِّق أو لا تصدِّق عزيزي لاطش الأرواح، عائلات محترمة جدّاً كانت تعتقد أن من الحداثة بمكان أن تشاهد، بعد وجبات دعوات الغداء أو العشاء، فيلماً إباحيّاً معاً، صغاراً وكباراً، "كما يفعل الناس في الدول المتطورة" (حسب اعتقادهم!).

الأسوأ أحياناً: كانت بعض تلك الأفلام ساديّةً مازوشويّة!

"مش معقول!" يتمتم هادم الملذّات ومنهي المسرّات وهو يحكُّ رأسه. تُرهقه الانزياحات الداكنة للغباء البشري. ظلال حسراتٍ تعبر سيماءه. يتنفَّس بعمق...

يحكُّ رأسه مجدّداً... أستطردُ:

في هذا الجانب من "الحداثة" بالذات، كان سوسلوف، عزيزي الغالي عزرائيل، يجيد الربط الديالكتيكي بين النظريّة والممارسة!

كان في عمر أساتذتي بالمدرسة، يكبرني بحوالي عشر سنين. كان يسكن في البدء في ضواحينا العدنيّة نفسها، بعد وصوله من جبال العوالق فقيراً محروماً، ليعيش مع عائلةٍ من أقربائه البعيدين الذين يشتغلون في عدن. توفّيت والدته في صباه، وكان والده يعتمد عليه في إرسال بعض المصاريف أحياناً.

لزمه أن يخدم في بعض البيوت، ويدرس في الوقت نفسه. كان نشيطاً لبقاً ناجحاً. ثمّ وفّرت له الثورة ضد الاستعمار الإنجليزي ظروف الرقيّ السياسي سريعاً، فصار شابّاً مناضلاً مرموقاً قبيل

[1] تباتيك: "اكسسوارات" ومنتجات صنعية صغيرة تافهة.

الاستقلال في ١٩٦٧، "فدائيّاً مغواراً" كما قيل.

ثمّ تطوّر وضعه بشكلٍ خاص بعد "وصول اليسار إلى السلطة" (بعد انقلاب ٢٢ يونيو ١٩٦٩ ضد "اليمين الانتهازي")!...

أتذكّره، صديقي الغالي سارق الأرواح، عندما كان يصل ركن شارعنا (بعد أن بدأ مغازلته لفيروز، ابنة هذا الشارع) وهو في السابعة عشرة تقريباً.

كنا صغاراً جدّاً، وكان يشاركنا الحديث أحياناً في الركن، وهو يترقّب عبور فيروز لشرفتها، لتوجيه ابتسامةٍ لها أو غمزة، أو بعث رسالة...

كان لطيفاً جادّاً، ماهراً في كلِّ أنواع الحديث: من النكتة (كان موسوعة نكت) إلى التنظير السياسي. أبدع لاحقاً في ذلك بعد عودته من دراسة "العلوم الماركسية اللينينية" في موسكو، وصار المنظِّر الماركسي اللينيني الرسمي بامتياز.

لكنه كان يثير إعجابنا وذهولنا كلّه، ونحن نصغي إليه في صبانا في ركن الشارع، عندما يتكلم عن شغله الشاغل: الحب والملابس التحتيّة (الحمّالات).

لعلّه، بدونجوانيته وحديثه عن مغامراته العاطفية وتجربته الواسعة، كان يحاول أن يتجاوز شعوره بالنقص كونه اشتغل في صباه في خدمة البيوت العدنيّة، أو لعله كان من الناحية البيولوجية مهووساً جدّاً بالحمّالات حقّاً.

مدينة السيسبان: يعرفها عن ظهر قلب. أتذكّره عندما كان يشرح لنا بيولوجيا المرأة و"نظرية الفرْج": "ثغر المرأة مرآة فرجها، لهما

نفس الشكل واللون والحجم!" كان يقول، وما إلى ذلك من نظرياتٍ غريبةٍ غامضة أثارت انتباهي في الصغر...

في تلك السنِّ، كان شارعنا مدرسة نظريات، لاسيّما "نظرية الفرْج"! كانت تثير انتباهي صيغٌ مختلفة من هذه النظرية تصل مسمعي من كل حدبٍ وصوب.

أتذكّر مثلاً جارتنا السوقيّة وزوجها المدمن على الكحول، وصراعاتهما الليليّة المدويّة على مسمع أطراف الشارع. (كان لها صوتٌ جبّارٌ يهزُّ الجدران).

تسرّبتْ في معمعان شجارٍ مدوٍّ بينها وزوجها إحدى حكمها الخالدة التي ظلّت في بالي حتّى الآن: "في هذه الحياة، كلُّ شيءٍ فانٍ إلا عروق الإست!" (أي: شرايين الفرْج).

هكذا، كلما كنت أسمع محاضرةً أيديولوجية لسوسلوف في الإذاعة أو التلفزيون، بعد أن صار المؤدلج الرسمي الذي لا يملّ الحديث عن "سمة العصر"، أستعيد أتوماتيكياً ذكريات طفولتي، لاسيّما مختلف نظريات مورفولوجيا وبيولوجيا الفرْج التي سمعتها في ركن الشارع!

في كل زيارة إجازة صيف من باريس إلى عدن بمعيّة نجاة كنتُ، عزيزي مفرِّق الجماعات وهادم المسرّات، أسأل كثيراً عن أخبار عائلة سوسلوف. أثار ذلك استغراب البعض.

عرفتُ في بدء الثمانينيات أن سوسلوف وزوجته دخلا في حربٍ أهليّة طاحنة، بسبب همز ولمز الناس حول مغامراته مع سكرتيراته وعددٍ متنوِّعٍ من الفتيات...

ثم عرفتُ في منتصفها أن زوجته انتقمت منه بعلاقة مع عدوِّه اللدود (أحد أهم القادة السياسيين)، الأعلى منه مرتبةً والأكثر شيطنةً، وأن عائلتهما الصغيرة تشظّت تماماً.

زادت الطينَ بلّةً الحربُ الأهلية بين الأطراف السياسية المتنازعة في رأس قيادة اليمن الديمقراطي، في يناير ١٩٨٦ (١٣ ألف قتيل!). حرب أهليّة انشطر فيها الجيش والحزب الحاكم على أساسٍ مناطقيٍّ قبلي، كاشفاً أن الأفكار الاشتراكية والأممية البروليتارية كانت مجرد أقنعة يضعها ماركسيون أميّون ليسوا في العمق أكثر من قبائل همجيّة متخلفة!

ازداد صراع سوسلوف وفيروز شراسةً ودمويّة قبيل حرب ١٩٨٦. بدأا "أمَّ المعارك" لانتماء كلٍّ واحد منهما إلى أحد طرفيها المتصارعين. نشر كلٌّ واحدٍ منهما غسيل الآخر بحقدٍ وروح انتقامٍ شنيعة.

كان كلُّ ذلك يصل إلى مسمع ابنتهما الوحيدة، المسكينة جدّاً، هاوية، المهملَة جدّاً من أبوين في صراعٍ يوميٍّ لا هوادة فيه، والتي لم يعد لها حلمٌ آخر غير الهروب بعيداً عن الجحيم!...

# الفصل السادس

منشور من حائطي في الفيسبوك:

لا أنوي أن أسرد لـ"ملاك الثورات" المساهمة الرابعة من رصيد نشاطي الثوري اليمني، عندما كنت طالباً في عدن، لأنّها أتفه من سابقاتها (التي وضعتها على حائطي في منشورٍ سابق).

سأسردها هنا لملائكة ثورات الفيسبوك فقط:

في النصف الأول من سبعينيات القرن المنصرم تمّ ترشيحي لأوَّل مؤتمرٍ لـ"اتحاد الشبيبة اليمني الديمقراطي" (أشيد) في فروع أحياء الشيخ عثمان وضواحيها. عُقد المؤتمر لتتوحّد فيه شبيبة "فصائل العمل الوطني الثلاث" التي ستشكِّل لاحقاً الحزب الحاكم الواحد: الحزب الاشتراكي اليمني، الذي "لا صوت يعلو فوق صوته".

مرّ المؤتمر ببراءةٍ لم تتكرَّر بعد ذلك:

نقاشاتٌ طوال اليوم، في نفس المدرسة الرمليّة التي نظّمتُ فيها لاحقاً "دروس محو الأميّة".

قرب المساء تمّ تكليف ثلاثة (أحدهم أنا)، من شباب الفصائل

الثلاث، بصياغة مشروع القرارات والتوصيات الذي سيُناقَش في الغد.

اتَّفقنا على كلِّ شيء تقريباً، إلا على تفصيلٍ لغويٍّ شكليٍّ جدّاً لا غير، في مشروع توصيةٍ (من سطرين أو ثلاثة) بالغة الأهمية، جوهريّةٍ جدّاً، ستُغيِّر موازين القوى في الكرة الأرضية والكواكب المجاورة، حول "دعم شبيبة أحياء الشيخ عثمان وضواحيها للثورة في موزمبيق!".

(سمع ثلاثتنا أن هناك ثورة، لكنّا لم نكن نعرف عنها أدنى تفصيل، أو حتّى عن موقع موزمبيق الجغرافي، عدا كونها في أفريقيا. أمّا تحوُّل ثلاثتنا إلى ناطقين رسميّين باسم شبيبة الشيخ عثمان وأمزجتهم في دعم الثورة الموزمبيقية (هم الذين لم يسمعوا غالباً عن قارة أفريقيا) فهذه قضيةٌ أخرى!).

لم نصل إلى حل حتّى الرابعة فجراً!

عدت بعدها إلى منزلنا. أمّي (التي سكبت طنّاً من الدموع) وأبي (الذي أعاد صلاة ركعات الوتر ألف مرّة) لم يناما من القلق. أنهكهما الخوف من مصيبةٍ سياسيةٍ سقطت على رأسي، في تلك السنوات التي كانت سماؤها تمطر مصائب من العيار الثقيل.

توقّف المؤتمر في صباح اليوم التالي بسبب عدم اتفاقنا. تدخّلاتٌ استثنائيةٌ من القيادات العليا لِلفصائل الثلاث حلَّت خلافنا الموزمبيقي قبيل الظهيرة!

لعلّ "ثقافتي وأحلامي الثورية"، التي برهنتُ عليها في مؤتمر وزن الريشة ذاك، أدّت إلى ترشيحي لحضور مؤتمرٍ بوزن الفيل:

"المؤتمر العام الخامس للتنظيم السياسي الموحّد الجبهة القومية"، الفصيل الرئيس الذي كانت بيده مقاليد الحكم (والذي سينصهر فيه الفصيلان الآخران) ليتحوّل بعد ذلك بقليل إلى "الحزب الاشتراكي اليمني" "الذي لا صوتَ يعلو فوق صوته".

لزمني أن أملأ استمارة الترشيح!

مثل كلِّ استمارة تُملأ في اليمن الديمقراطي، كانت هناك خانتان هامّتان بعد الاسم ومحل وتاريخ الميلاد، حاسمتان وشديدتا الأهمية:

١) الانتماء الطبقي. ٢) الانحدار الطبقي.

الأولى سهلةٌ نسبيّاً: طالب (برجوازي صغير).

هكذا تُملأُ في حالتي، لأن الطلبة "شريحة" من طبقة البرجوازية الصغيرة، حسب قواعد لغة تلك الفترة وقوانين فيزيائها.

الانتماءات الطبقيّة التي ترضي خاطر الثورة: "فلاحي فقير"، أو "طبقة عاملة" لمن حالفه الحظ. الإقطاع والبرجوازية انتماءان طبقيّان اختفيا من السوق كليّةً: تمّ سحل الأولى في "الانتفاضات الفلاحيّة المجيدة" وهربت الثانية بعد قانون تأميم ممتلكاتها!...

لم أعرف كيف أملأ خانة الانحدار الطبقي. لأن أبي، الحاج عبد الله عبد السلام، يمتلك مطعماً صغيراً جدّاً متخصِّصاً بوجبة "الصياديّة" الحضرميّة في ضواحي الضواحي الشيخ عثمانية.

لم أكن هكذا من أصولٍ برجوازيّة، لحسن الحظ، كي أضع في هذه الخانة المصيرية أسوأ الردود: "برجوازي"، التي ستؤدي إلى خرابي الكليّ.

ولا يمكن ملؤها، لسوء الحظ، بأحد الردّين الجيّدين نسبيّاً:

"مثقف ثوري" أو "فلاحي فقير"، لأن أبي لم يكن كذلك...

بقيت إجابتان ممكنتان: الأروع التي تفتح للإنسان باب المستقبل: "طبقة عاملة"، والأسوأ التي تثير التوجّس والريبة والمصائب: "برجوازية صغيرة": شريحة "النفاق الثوري" التي تصبُّ عليها أدبيات الحزب كلَّ الشكوك واللعنات!

لم أعرف ما أكتب في هذه الخانة. تركتها فارغة. كنت خائفاً من التداعيات السلبيّة للإجابة الثانية، وغير واثقٍ من أنني أستحقُّ "شرف ونبل" الإجابة الأولى.

انهال النقد عليّ في الاجتماع التحضيريّ لانتخاب المندوبين إلى المؤتمر العام الخامس، لأن ترك هذه الخانة الجوهرية فارغةً "يدلّ على ضعف الحسِّ والقناعات والوعيِّ الثوري!".

واااااو!

المشكلة أنّهم عندما أرادوا ملء هذه الخانة بدلاً منّي، لم يتّفقوا على الرد.

دار نقاشٌ حامي الوطيس في ذلك الاجتماع التحضيريّ التاريخيّ حول انحداري الطبقيّ، ساهمتْ فيه كلُّ النخبة السياسية التي قادت اليمن الديمقراطي. نصفٌ منهم مع الإجابة الأولى، ونصفٌ مع الثانية.

صدِّقوا، أعزائي ملائكة ثورات الفيسبوك، أو لا تصدِّقوا:

بعد جدلٍ طويل، جاءت الفكرة من الرفيق "سالمين"، رئيس اليمن الديمقراطي نفسه:

"تُشكَّل لجنة تذهب إلى مطعم والد الرفيق عمران لتحصي عدد

ملاعق المطعم!" (لا توجد سكاكين أو شوكات في المطاعم الشعبية اليمنية).

في ضوء تجاوز العدد رقماً محدّداً فاصلاً، ستختاره اللجنة في اجتماعها المغلق، سيتمُّ تحديد انتمائي الطبقي، وإكمال تعبئة الاستمارة.

توجَّهت اللجنة الرسمية، المكلّفة من الاجتماع التحضيري، إلى مطعم الوالد. ثمّ عقدت اجتماعاً مغلقاً بعد ذلك لتحديد السور الصيني الذي يفصل بين كميّة ملاعق البرجوازية الصغيرة وكميّة ملاعق الطبقة العاملة.

أي: رقم الملعقة اللعينة التي تتحوّل بعدها الطبقة العاملة إلى برجوازية صغيرة.

أي: ما يقابل "الدرجة المائة" في كتاب بوليتزر، لكن بالمقلوب (لأن التراكمات الكميّة تؤدِّي إلى تحوّل نوعيّ، سلباً كان ذلك أو إيجاباً!).

بعد نقاشٍ مستفيض حول هذه المسألة النظريّة المفصليّة العويصة، ذات الأهميّة المركزيّة الحاسمة، تمَّ اختيار انتمائي الطبقي:

برجوازي صغير!

لعنة اللعنات: طبقة "الخطيئة الأصليّة والنفاق الجذري"!

لم أحضر المؤتمر لذلك. اقتصرتْ هكذا مساهماتي التاريخية في مؤتمرات الثورة اليمنية الديمقراطية على حضور مؤتمر "أشيد" لشباب أحياء الشيخ عثمان وضواحيها، لا غير!

عندما عدت من باريس إلى عدن في أوّل إجازة صيفٍ، في نهاية

السبعينيات، سألت بكلٍّ لهفةٍ طبعاً:

- كيف دار المؤتمر الشبابي الثاني فيه، وكيف تمّت صياغة التوصية الخاصّة بدعم الثورة في موزمبيق؟

كان الردُّ قاسياً بالنسبة لي، ثلجيّاً جدّاً:

- نحن نستعد الآن لولوج الثمانينيات من القرن العشرين! تجاوزنا "عصر الطفولة الثورية" التي رافقت مؤتمركم، ودخلنا "عصر النضوج والرسوخ الثوري!"؛ ردّ شابٌّ من شوارعنا حضر المؤتمر!

- ماذا يعني ذلك؟ ماذا حدث بالضبط؟؛ سألتُ.

- صار نموذجنا السياسي: الرفاق السوفييت. تصلُ الآن كلُّ مشاريع الأدبيات والوثائق والقرارات والتوصيات جاهزةً إلى المؤتمرات من القيادة العليا. يكفي التصويت عليها. لم يعد هناك نقاشٌ حولها مثل أيّام "الطفولة الثوريّة"، أيّام مؤتمركم الأوّل!

منشور من حائطي في الفيسبوك:

بعد حرب ١٩٨٦ بأربع سنوات (في ٢٢ مايو ١٩٩٠) توحّد اليمن شمالاً وجنوباً. وبعد ذلك بأربع سنوات فقط اجتاح الجنوبَ تحالفُ قوىً سلفيّةٍ وقبليّةٍ وعسكريّةٍ وجهاديّة في رأس السلطة، بعد حربٍ طويلةٍ انتهت في يوم مشؤوم: ٧ يوليو ١٩٩٤.

نُهِبَ الجنوب عن بكرةِ أبيه، طُردت من أعمالها صفوة الكوادر السياسية والعسكرية والمدنيّة الجنوبية، أُلغي التعليم المختلط مباشرةً ووزِّع الطلاب إلى مدارس ذكور وإناث منفصلة، مُحيت كل آثار

المدنيّة، عُمِّم الحجاب وانتشر النقاب، وقُضي على هويّة عدن المدنيّة تماماً.

لم تُغلَق بارات المدينة ومصنع "بيرة صيرة" فقط لصالح ازدياد ثروة كبار العساكر والمسؤولين من بيع الخمور المهرّبة، بل صار يُجلد في وسط الشارع من يشرب الخمر من البسطاء!

بدأ التحضير لهذه الحرب، سنة أو سنتين قبل نشوبها، باغتيال حوالي ١٩٠ من قادة الحزب الاشتراكي اليمني واليسار وأبرز العناصر المدنيّة. اغتيالاتٌ افتخرت منظّمة القاعدة الجهاديّة بتنفيذها، بالتعاون مع الأصابع الخفيّة لرأس النظام بالتأكيد، وبرضى ودعم السلفيين والإخوان المسلمين!...

*********

في أوَّلِ زيارةٍ صيفية لي، بمعيّة نجاة، إلى عدن، بعد حرب ١٩٨٦، شعرت أن "اليمن الديمقراطي" قد وقع في هاويةٍ بلا قاع. قرأتُ عليه الفاتحة!

صفعتني بعد يومين من وصولي، واستفساري عن عائلة سوسلوف، هذه العبارة: "هربت فاتن إلى الشمال!"...

ابنة مدير مدرسة الماركسية اللينينية تهرب من "اليمن التقدّمي" إلى "اليمن الرجعي"!

اعترتني، في الحقيقة، صدمةٌ لا تُنسى، عزيزي ناهب الأرواح!

"هرب إلى الشمال" مصطلحٌ بغيضٌ غامض ظهر طوال

السبعينيات والثمانينيات في تلك الأيام، حيث كانت الحدود مغلقةً بين الشطرين، والرقابة الأمنيّة شديدة: شيفرةٌ مفضوحة لترويج تمويه اختطاف الشخص الذي "هرب إلى الشمال" وقتله.

كان يعني، بكلِّ بساطة: اُغتيل!

ولأن اليمن بلدٌ يحترم مبدأ التماثل الهندسي، فقد كان هناك في الشمال ابن عمِّ المصطلح: "هربٍ إلى الجنوب". أي: تعرّض للاغتيال خفيةً هناك، دون ترك أثرٍ يدلُّ على حياته أو مماته.

أين هي حقّاً؟ هل يلزم قراءة الفاتحة عليها مثل بقية من "هرب إلى الشمال"؟... يستحيل ذلك لأن أباها قياديٌّ كبيرٌ جدّاً، ازدادت أهميّته بعد حرب ١٩٨٦ الطاحنة، فيما من "هربوا إلى الشمال" خصومٌ سياسيّون، أو "متديّنون رجعيّون"، أو معلِّقون ساخرون من النظام. أي كلُّ من تحويهم هذه التسمية العريضة جدّاً التي كانت تُردَّد في الإعلام الرسمي ألف مرة كل يوم: ثورة مضادّة (قبل أن تُستبدل بمصطلحاتِ آخرِ صرخاتِ موضاتِ الأيديولوجيا: "يمين انتهازي"، "يسار انتهازي").

أين هي حقّاً؟ لغزٌ مريع، لغز الألغاز!...

لم أعرف عدن عندما عدت إليها للإجازة مع نجاة في شتاء ١٩٩٥. (احتفلنا بعيد ميلادها الرابع والثلاثين هناك. في جزيزة عمران التي كانت يومها أجمل من أي وقتٍ مضى، لنا وحدنا طوال ذلك اليوم الخالد الذي لن يتكرّر: ١٢ مارس ١٩٩٥).

صارت عدن (بعد غزوة ١٩٩٤) مدينةً مهانةً، غنيمة حرب تعيث فيها القبائل والظلاميون وينهبون أراضيها وثرواتها بحقدٍ وبشاعة.

كنّا في السيارة عندما رأيت رجلاً يعبر وحيداً في ركن شارع، لا يهمُّه إلا أن لا يعرفه أحد. فقدَ كلَّ أبّهته.

أوقفنا السيّارة. ذهبنا، نجاة وأنا، نحوه.

عرّفته بنفسي ليتذكَّرني. لم يعد يتذكّرني كما لاحظت، ولا جلسات صبانا في ركن الشارع.

فقد بريقَ عينيه. نظراته ترابيّةٌ خافتة تغيب في فراغ، لا ينبض فيها غير القلق والخوف من شيءٍ ما...

عرَّفته بزوجتي التي مدّت يدها بشكلٍ طبيعيٍّ لمصافحته. اعتذر عن مصافحتها قائلاً إنه "متوضّي"!

اعترتني، عزيزي قابض الأرواح، شحنةٌ كهربائية. غيضٌ، إهانة. كفرٌ بهذا التقلّب من أقصى الإلحاد الماركسي اللينيني المدويّ إلى أقصى التظاهر الشكلي والتشدّق الصارخ وغير المهذّب بالدين: رئيس المدرسة العليا لعلوم الماركسية اللينينية في عدن يرفض مصافحة زوجتي حتّى لا ينقض وضوءه...

أشفقت عليه، وعلى لينين أيضاً!

("وأنا أيضاً!" يقاطعني نديمي الغالي بكلماتٍ أفلتت منه بلا وعي).

يئنّ لينين، رحمه الله، مرّتين في ضريحه في الساحة الحمراء: من سماع ذلك أوّلاً، ومن قبوع ضريحه في الساحة اليوم أمام معارض كينزو وشانيل وغيرها من أهم فنارات الرأسمالية المنتصرة في روسيا الرأسمالية المتوحشة.

لم يودّ سوسلوف الحديث معنا كثيراً. كان شاحباً، نحيفاً، ظِلَّ

ذاته: يبدو كمن يهامس نفسه على الدوام بتمتماتٍ خافتةٍ بلا معنى، أو يهمهم أدعيةً دينيّةً وآياتٍ قرآنيةً دون توقّف!

كنت أودُّ استفساره عن ابنته هاوية. لا. صعُب التطرّق لموضوعٍ بهذه الحساسية أمام من يبدو عليه توتّرٌ وعدم رغبةٍ في الحديث، يرفض المصافحة لأنه كما قال بابتسامةٍ فاترةٍ داكنة: "متوضّي".

ودّعته وأنا لا أصدِّق ما أرى: سوسلوف، رئيس مدرسة علوم الماركسية اللينينية، يرفض مصافحة زوجتي كي لا ينقض وضوءه!

أشعر كلّما أتذكّر ذلك، عزيزي قابض الأرواح، بمغصٍ حادٍّ وبدوخة حامضة كثيفة ترفض أن تزول...

(أسمعُ ناهبَ الأرواح يقاطعني من جديد: "وأنا أيضاً!").

# الفصل السابع

منشور من حائط فيسبوك الصديقة م. ح. بعنوان "آخر عسكريٍّ نفَّذ القانون في جنوب اليمن":

بعد حرب ٩٤ واجتياح قبائل شمال الشمال اليمني لعدن، أُصدر قرار بمنع عبور أيّة سيارة لا تحمل رقم مرور، عند أية نقطة تفتيش.

وصلت سيارة أحد كبار شيوخ القبائل ومرافقيه قادمةً من صنعاء إلى نقطة التفتيش الثانية لمدخل عدن. عشر سيارات جميعها بدون أرقام. أرادوا عبور النقطة.

استوقفهم الجندي المرابط هناك.

الشيخ: أنا الشيخ ح. ا.!

الجندي: سيارتك وسيارات مرافقيك بدون أرقام، لديَّ أوامر يجب تنفيذها.

الشيخ: قلت لك أنا الشيخ ح. ا.!

الجندي: لا أعرف هذا الاسم، ولا يعنيني.

أمر ح. مرافقية أن يتحرَّكوا ويتجاوزوا النقطة. تحرَّكت كل السيارات. غضب الجندي ورفع سلاحه وأطلق رصاصةً واحدةً في الجو.

بعد إطلاقه الرصاصة، شاهد الجندي سيارات ح. ومرافقيه تعود إلى الخلف نحوه.

ترك مكانه وهرب متَّجهاً الى أقرب مركزٍ أمني، وهو يصرخ: "ح. ومرافقوه يلاحقونني!"...

هرب كل من كان في المركز!

وصل ح. يصرخ: أين ذلك الجندي الذي أطلق علينا الرصاص؟

عندما لم يجد مجيباً، أمر مرافقيه بإطلاق قذيفة بازوكا على المكان، ففعلوا في الحال. انفجرت القذيفة في الطابق الثاني من المركز، وأحرقت السجل المدني الخاص بجميع أهل منطقة الشيخ عثمان في عدن.

عندما سمع رئيس الدولة بالقصة غضب كثيراً، وعقد اجتماعاً عاجلاً.

النتيجة: صدور قرار هامٍ عاجلٍ فوري: "على الجندي أن يعتذر للشيخ ح. ا.!".

كان ذلك آخر جندي حاول، بعد غزوة ١٩٩٤، أن ينفِّذ القانون في الجنوب، كما اعتاد الناس هناك.

بعد تلك الحادثة الشهيرة تعمّم العبث في الجنوب، ونهبت القبائل آخر ما تبقّى منه.

منشور من حائط فيسبوك الصديق ك. ح.:

قلت لكم مراراً:

هذه المدينة عاهرة تلبس نقاباً، تمارس البغاء وتدّعي الفضيلة.

هذه المدينة كافرة تدّعي الإيمان، كل يوم تنتصب فيها مئذنة وشبكة دعارة!

لا أسوأ من مدينة نصف ساكنيها مخبرون وقوادون.

خذوها قاعدة: المدينة التي تكثر فيها المآذن هي مدينة تمارس البغاء سراً في الزقاق المؤدي إلى المسجد!

هي ليست طاهرة، اخرجوا منها قبل أن تصيبكم اللعنة.

وما زلت أستغرب ممّن يسألني: لماذا تكره صنعاء؟

أنا لا أكرهها فقط. أنا أحتقرها، أحتقرها...

*********

وصلتُ في صيف ١٩٩٦ مدينة صنعاء، عاصمة اليمن الموحّد، لأوّل مرّة. كان اكتشافي لعاصمتي الجديدة، وأنا في الأربعين، لحظةً استثنائيّةً لا تنسى: مدينةٌ فريدةٌ في جمال معمارها، في روعة طقسها، وفي ظلاميّتها وتخلّفها ونفاقها.

ترفرف بشموخ من علياء كيلومترين تقريباً، بنفس ارتفاع "قلعة ألَموت" ("عشّ النسر"، منطلق منظمة الحشّاشين، التي استولى عليها حسن الصبّاح في ١٠٩٠) لكن بمساحة مدينة!

صنعاء: "قلعة ألَموت" بمساحة مدينة!...

لا توجد مدينةٌ في العالم أستطيع أن أنسى فيها نجاة أفضل من صنعاء: لا يذكّرني فيها شيءٌ بنجاة، ولا تجمعني فيها ذكرى واحدة معها. أستطيع أن أهرب فيها قليلاً من طعنةٍ في ظهري أبديّةِ النزيف والأوجاع.

أحببت صنعاء لذلك فقط، أحببتها برقّةٍ وهمجيّةٍ في الآن نفسه...

سكنتُ فيها بضعة أيّام في فندقٍ في شارع حدّة، غير بعيدٍ عن شقّة أختي الطبيبة سُميّة التي انتقلتْ من عدن للعمل فيها، مع أطفالها وزوجها.

كنت "مُربّي" سميّة في صغرها: ساعدتُها في تفوّقها الدراسي، أطّرتُها للنشاط الثوري الشبابي والطلابي، وكنت محاضرَها في الحلقات الثقافية التي "تؤهّل نخبة الشبيبة للانخراط في الحزب الاشتراكي اليمني، حزب الطبقة العاملة وسائر قوى الكادحين"، حسب بلاغة تلك الأيّام.

ثمّ صارت سريعاً أنشط منّي وأكثر ثوريّةً، حزبيّةً ماركسيّةً لينينيّةً مرموقة، وهي في ريعان المدرسة الإعدادية والثانوية!

عندما وصلتُ شقّتها، في صيف ١٩٩٦، كانت امرأةً أخرى. تصلّي ركعات صلاة الضحى والوتر وسنناً قَبليّةً وبَعديّة لا تُعدُّ ولا تُحصى. كلُّ جدران غرفها وأبوابها مطرّزة بأدعية مكتوبة بخطّ يدها: دعاء السفر، دعاء العودة من السفر، دعاء قرع الباب، دعاء الدخول من الباب، دعاء الخروج من الباب، دعاء المطبخ، دعاء وضع الحذاء، دعاء خلع الحذاء، دعاء اللوز والفستق، دعاء الفيمتو[١]، دعاء الذهاب إلى سرير النوم، دعاء طرد الكوابيس، دعاء الكوابيس...

وصلتُ فعلاً عالماً آخر... ثمّة ما يرجُّك كهربائياً، حبيبي عزرائيل، عندما ترى أختاً صغيرةً لك كانت ناشطةً ثورية نسائية مرموقة، لبست "الميني جوب" في ثانويتها، وها هي طبيبةٌ مرموقةٌ

١ فيمتو: مشروب إنجليزي منتشر في دول الكومنولث (مثل عدَن سابقاً): عصير توت وعنب، أحمر غامق.

بنقابٍ طالبانيٍّ أسود كثيف... تتمنّى أن "تبلعك أمُّ الجنّ على أن ترى ذلك بأمِّ عينيك" كما تقول عبارةٌ شعبيّة.

في عصر صنعاء الرائق، عندما يذهب الرجال إلى مجالس القات، يحدث في هذه المدينة في الخفاء كل ما يخطر ولا يخطر على بال: لقاءات قاتٍ ودّية (مصانع علاقات اجتماعية تريح الناس قليلاً من وطأة حياتهم الخانقة)، اجتماعات قاتٍ مافياوية تمتزج فيها الضغائن القبليّة بالدسائس السياسيّة، قصص عشقٍ إنسانيّةٍ رائعة خالدة، سيّاراتٌ مهنيّةٌ خاصّة تنقل البعض إلى جلسات سُكرٍ وعربداتٍ جماعيةٍ مغلقة، دعاراتٌ فاحشة يستقيم عند رؤيتها شَعر الجنّ والعفاريت، ونفاقٌ دينيٌّ صارخٌ لا حدّ له تقهقه عند رؤيته الشياطين...

ثمّة مليون مدينةٍ تختفي داخل صنعاء، مليون سرٍّ وحلم يختبئ في دماغ كلِّ امرأةٍ فيها، مليون حزنٍ وجرح، مليون ألمٍ وكآبةٍ وسعادةٍ صغيرة.

صنعاء مدينةٌ يتوحّد فيها الكبت والسرُّ ليل نهار. يتنقّلان في ساحتها من رقصة فالسٍ إلى رقصة "بَرَعْ"[1].

صنعاء مدينةٌ يتعانق فيها السيل الشفّاف الرقراق والمستنقع.

صنعاء حلبة صراع بين يرقة مدينة خجولة باهتة الصوت مُشرنقة بألف حجابٍ ونقاب، وقنفدٍ يبركُ فوقها، أشواكه سيوفٌ وجَنَابي[2].

صنعاء طفلةٌ جميلةٌ قاصرةٌ ينتهكها شيخٌ قبليٌّ لم يغسل فمه من

---

١ برع: رقصٌ قبلَيّ فلكلوري بالجنابي (الخناجر الصنعانيّة) يمارس في بعض مناطق شمال اليمن.

٢ جنابي: الجمع من "جنبية": خنجر صنعانيّ مربوط بحزام.

رائحة القات منذ سبعين سنة.

سمكةٌ صغيرةٌ تجثم عليها (وعلى كلِّ من يخضع لسطوتها) قبيلةُ أخطبوطات عملاقة، كلّ أخطبوط بألف ذراع، كل ذراعٍ بألف فمٍ شفّاط.

صنعاء جوهرةٌ بيد قرصان. مخاطٌ داكنٌ فوق وردة.

أحبُّ هذه المدينة، رغماً عنّي. أحبِّها أكثر فأكثر...

اعذروني إن قلت بهمسٍ رهيفٍ خجولٍ جدّاً: أعشقها أيضاً.

ذات عصرٍ صنعانيٍّ لطيف توجّهت إلى شقّة أختي، لأراها مع صديقةٍ لها من طيور الظلام.

ما لم يكن اعتياديّاً هو أنهما لم يغلقا باب غرفتهما عندما رأتاني أدخل الشقّة، كما هي العادة عندما يصل رجلٌ قرب غرفةٍ فيها امرأةٌ من خارج العائلة. بل دعتني أختي لتعرِّفني بصديقتها التي بادرت ومدّت يدها أيضاً (على غير عادة السلفيّات) لتصافحني!

تذكّرت سوسلوف الذي رفض مصافحة زوجتي، وإن كانت مصافحتها مجداً لا يستحقّه.

كان على كفّيها قفازا "جلوفز" واقيان، يمنعان لقاء البشرتين بالطبع، وكانت مجلببةً (مغطّاةً) بحجابٍ كليٍّ أسود ونقابٍ صارم لا تبدو منه إلا عيناها... عيناها اللتان تهيّأ لي أني أعرفهما،

لا أعرفهما،

أعرفهما قليلاً،

لا أعرفهما تماماً...

رشيقةٌ بشكلٍ نموذجي، يسيل حجابها على جسدها الذي يبدو خطيراً في عذوبته... ثمّة تناقضٌ مفاجئ بين الهيئة السلفيّة لهذه الغريبة وبين "زرزرة" حجابها المفصّل على جسدها والملتصق به بذكاء.

كدت أجزم، وأنا لا أرى إلا عينيها، أنها هاوية، لولا خيبتي القاطعة المانعة عندما عرَّفتني بها أختي:

- أمَةُ الرحمن، صديقتي، داعيةٌ إسلامية!... أخي: باحثٌ جامعيٌّ في الآداب، يعيش في باريس!...

- أهلاً، سعيدٌ برؤيتكم!؛ أجبت.

"برؤيتكم!": خانتني بلا وعي هذه الكلمة، عزيزي سارق الأرواح، لأني لم أرَ من هذه الفتاة غير هاتين العينين القاتلتين.

ثم صوتٌ آسرٌ قاتل، بلهجةٍ صنعانيّة نقيّة قطعت عليّ أصغر أملٍ بأنها هاوية (ذات اللهجة العدنيّة بالضرورة، وإن لم أسمع مرّةً واحدةً نبرات صوتها في دكان الأعمى، رغم الساعات الطوال التي كنّا نتناجى خلالها بصمت ونحن نمارس "لعبة نظرات التمثالين" في الدكان):

- أهلاً، أسعد الله مساءكم. نوّرتم مدينتنا صنعاء!؛ قالت الداعية أمَة الرحمن بصوتٍ ساحر،

بصوتٍ فاتك،

وبلهجةٍ صنعانيّة جبليّة تبعد عن اللهجة العدنيّة بضع سنين ضوئيّة.

- كأسٌ بُن أو شاي برفقتنا، "فيمتو" أو كوكا كولا؟؛ تقترح أختي.

- لا، شكراً. جئت فقط بحثاً عن مفكّرتي التي نسيتها هنا البارحة.

فيها كلّ أرقام أصحابي. يلزمني العودة حالاً إلى الفندق حيث سيأتي أصدقاء طفولة لزيارتي.

غادرت الشقّة مسكوناً بنظرات أمَة الرحمن، وبتناقضٍ ما في هيئتها، مثيرٍ جدّاً (مهرجان تناقض، في الحقيقة)، وبعينين بدتا لي أليفتين، حرّكتا شجوناً ومشاعر غريبة في لاوعيي المخبوط رأساً على عقب.

في لمعتيهما ولغةِ تصويبِ نظرتهما نحوي ملامحُ وشيفراتٌ ما، لم أستطع قراءتها!...

غادرت شقّة أختي وأنا أعرف من هي الداعية الصنعانية التي جعلتها مهووسةً بالأدعية والسنن القَبليّة والبَعديّة، هي التي كانت مهووسةً بالماديّة الدياكتيكيّة والماديّة التاريخيّة عندما كنت أنا "الداعي" في الصغر. انتقلتْ هكذا من دينٍ لدين.

كنت أظنُّ أن الداعيات الدينيات لا ينجحن إلا في البيئات الأميّة الفقيرة فقط.

خطأ: ينجحن حتّى وإن كنّ من بنات أعالي الجبال الصنعانية القبليّة المعزولة البعيدة، ومع أختي المدنيّة المدجّجة بأكبر الشهادات العلمية في الطب وفي الماركسية اللينينة أيضاً.

طبقات مرارات: فشلتْ "تربيتي المدنيّة" لأختي الصغيرة. تهزمني داعيةٌ صنعانيّة ظلامية ممن ياركون ويديرون التفجيرات الإرهابية كتلك التي حوّلت كل ليالي حياتي كوابيس، من يدري! حقدٌ دفينٌ يتضاعف!...

بعد ثلاثة أيّام من ذلك، كنت في غرفتي في الفندق. سمعت ضجيجاً مدويّاً يشبه المظاهرة. فتحت النافذة لأرى سيلاً من السواد يعبر الشارع. مظاهرةٌ نسويّة. آلاف الأجساد المغلّفة بأحجبة وأنقبة سوداء، متراصّة في صفوف مكتظّة، يرافق كلَّ واحدةٍ منهنّ غالباً صبيٌّ صغير: ابن أو بنت، لأن "المرأة المؤمنة لا تخرج لوحدها إلى الشارع!"، حسب البديهيات السلفيّة. (يلزمها "محرَم" إن كانت في مكانٍ يأتيه رجال، أو مرافقٌ صغيرٌ إن كانت بين نساء وسط الشارع!).

تتقدّمُ سيلَ النساء حاملاتُ شعاراتٍ لم أفهم منها شيئاً: "الشرع حلّل أربع زوجات" (مع صورة تعطف أصبع الإبهام نحو راحة اليد، وتلوِّح بالأربع أصابع الأخرى، من السبّابة إلى الخنصر).

شعارٌ آخر: "مشروع قانون البرلمان الذي يمنع زواج الفتاة قبل الثامنة عشرة يصدم تعاليم الشريعة الإسلامية".

آخر: "مشروع قانون منع العنف ضد المرأة موقفٌ عنصريٌّ ضد مبادئ الشريعة الإسلامية".

آخر: "مشروع قانون منع ضرب المرأة انتهاكٌ لحقوق الرجل التي حدّدتها الآية ٣٤ من سورة النساء".

ما هي هذه الآية؟

﴿وَاللَّاتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَاهْجُرُوهُنَّ فِي الْمَضَاجِعِ وَاضْرِبُوهُنَّ﴾

تساءلت أمام هذا السيل الأسود المكتظِّ في الشارع، إن كنت في حلمٍ كابوسيٍّ أو في معمعان الواقع. كان المشهد في الحقيقة أكثر هولاً من فيلم رعب، يثير في مزاجي الحداثي، شديد التحسُّس من

الظلاميين والإرهابيين، رغبةً عنيفةً في الاستفراغ والطرش!

أحتاج عونك، صديقي الغالي قابض الأرواح، أحتاجه بشدّة:

أيّة عبرةٍ تكمن في تعاقب مسيرات "أيري بأمّه من جدلنا" في طفولتنا وراء الحسّاني، بمسيرات "عنف بالعنف" أثناء "الأيّام السبعة المجيدة"، وبمسيرات "الشرع حلّل أربع"؟

هل قُدِّر لنا أن نكون مختبراً وحقل تجارب؟

أللحياة معنىً، هدفٌ ما؟ اتجاهٌ ومغزىً معيّن؟ أم أن أعمارنا منظَّمةٌ على عقارب مزاج ميتافيزيقيٍّ متقلِّب، في حياةٍ ليست أكثر من طرفةٍ بلا رأس أو أرجلٍ؟

أم الحياة مجرّد مسرحيّةٍ ألّفها مجانين، تُعرَض في مستشفى مجانين؟

أين أنا الآن؟ أين عشت وأعيش؟ ما الذي ينتظر حياتنا في العقود القادمة؟ في القرون القادمة؟...

مكثت في النافذة أحملق في هذا المنظر السريالي المثير للاشمئزاز والكفر، حتّى رنّ تلفون غرفتي: يشعرني الشاب في مكتب استقبال الفندق أن ثمّة من يريد مقابلتي!

نزلت لأفاجأ بأن الهيفاء شديدة الديناميكية التي كانت في مقدمة المسيرة النسائية كما يبدو (منظِّمتها الرئيسة، كما سأكتشف لاحقاً) دخلت باب الفندق أثناء عبور المسيرة الشارع دون قلقٍ من أحد، في مجتمع تزدهر فيه كلُّ الشكوك وتتطاير في كلِّ الاتجاهات عند دخول امرأةٍ لوحدها فندقاً.

طلبتْ من موظف الاستقبال أن يتّصل بي لأنزل لمقابلتها.

رأيتها جالسةً على كنبةٍ في الفندق تنتظرني. اقتربت منها مرتبكاً... تحيّة دينيّة: "السلام عليكم ورحمة الله وبركاته". رددتُ عليها: "أهلاً، كيف حالك؟". "الحمد لله"، أجابت.

ثم بدأت تحدِّثني بسعادة وفخر، كأني من أنصار فكرها وحزبها الديني، عن ضخامة مسيرتها النسائية ونجاحها المتوقّع المؤكّد الذي سيمنع البرلمان من اتخاذ أية قوانين مضادّة للشريعة الإسلامية!

تبوح هكذا بما يجتاح مشاعرها لمن رأت، قبيل ثلاثة أيّام، وخلال دقائق فقط، في بيت أخته. تستدعيه من غرفة فندقه لهذا الغرض، هو الذي أثارت فيه هذه المسيرة المرعبة رغبةً عنيفةً في التقيوئ!

لعلّها داعيةٌ مجنونة من طرازٍ خاصٍّ جدّاً: لا تخاف دخول فندق بحثاً عن رجلٍ لا علاقة لها به (في مدينةٍ تُجرِّم ذلك بشدّة) على بعد أمتار من مليونٍ سلفيّة ظلاميّة تعبر الشارع!

أو لعلّها شخصيّةٌ مهمّةٌ جدّاً، جريئةٌ جدّاً، فرضتْ موازين قوى ومعادلات مشعبكة تسمح لها بعمل ما تريد!

يا لها من مغامِرةٍ، في كلِّ الأحوال!

مدينةٌ عجيبةٌ هذه المدينة التي أصلها لأول مرّة، عاصمتي الوغدة الجديدة!...

رددت عليها من موقعٍ معاكسٍ تماماً (في هذه القضايا المدنيّة، وفي كلِّ ما يمسّ النقاشاتَ مع السلفيين أميل للمواجهة المشاكسة العمودية الحرّة. هم وأنا "مجموعةٌ رياضيّةٌ فارغة". بيني وبينهم تصفية حساب، حياة أو موت!):

– منظر هذه المسيرة السوداء يصدمني، وشعاراتها الظلاميّة أكثر!

يصدمني، في الحقيقة، أكثر من كلِّ شيء، منظر أمَة الرحمن وهي تناقشني بوجهٍ مخفيٍّ خلف نقاب: لم أتحدّث قبل هذه اللحظة مرّةً واحدة في حياتي مع امرأةٍ بنقاب، ولم أتصوّر نفسي قادراً على تحمّل الحوار مع شبح!

ثم كنت في الأساس أتوق بنهم لرؤية وجهها.

عقّبتْ:

- استغفرْ الله، هذه الشعارات آتيةٌ من آيات قرآنية، من كلام الله سبحانه وتعالى! هل تعي ما تقول؟!

كنت شبه منفعلٍ وأنا أعلّق:

- ربما كانت هذه الشعارات متقدِّمةً على زمنها قبل ١٤ قرن من الآن، لا أعرف. لكن حاملاتها (الملوّحات بأربع أصابع وأصبع معطوفة، وبشعار "الشرع حلّل أربع") من وجهة نظر العصر: جَوارٍ، عبدات سعيدات بعبوديّتهن، تنقصهنّ "الحاسّة" الخامسة، أهم الحواس: حاسّة الحريّة! لأنَّ...

قاطعتني بهدوءٍ أرغمني على ضبط أعصابي:

- في كلِّ ما يقوله الله حكمةٌ يُحرَّم مطلقاً الشكُّ فيها. نجهل أحياناً تفسيرها وإدراك كنهها ومغزاها، لكن الانقياد لها، وحده، طريق الحقِّ والصواب... سأدعو أن يهديك الله.

استطردتُ من حيث توقّفتُ:

- لأن كلمة "واضربوهن"، من منظور العصر الحديث، تحريضٌ على العنف، غير مقبولٍ في عصر "حقوق الإنسان".

- ليس هناك عنف إطلاقاً. الضرب الذي يقصده الشرع تربوي،

خفيفٌ ناعم. ضربٌ كرَّم الله به المرأة: بدون سبٍّ أو عنف؛ بدون عصا؛ بـ"السواك" مِثلاً، لا غير!

(ضربٌ كرَّمَ الله به المرأة: عجيب! احتجت وقتاً لأصدِّق أنّي سمعت هذه الجملة السرياليّة!).

– لم نعد نعيش في عصر السواك عزيزتي، أتقصدين: بفرشاة معجون الأسنان، بدل ذلك، أو "بالطفش" بالمعجون مثلاً؟

أحبّت ربّما "عزيزتي" (قليلة الاستخدام في البلاط السلفي)، لكنها لم تحب شيئاً ما يشبه التهكّم. قالت بكلمات نادمة:

– استغفرْ الله، الله يهديك!

ضايقني أكثر فأكثر الحديث مع نكرةٍ خلف نقاب. لذلك قلت لها:

– اعذريني عزيزتي أمَة الرحمن: أجد صعوبةً حقيقيّةً في الحديث مع وجهٍ لا أراه!

(تعرف مثلي، عزيزي عزرائيل، أنك مع هؤلاء ستظلّ تلهثُ إن لم تمتلك زمام المبادرة!).

بعد ثانيتين فقط، لم تتردّد عن خلع النقاب عن وجهها في الفندق، وإن ظلَّ شعر رأسها مغطّىً تماماً...

# الفصل الثامن

منذ العام التالي، صرت أسافر سنويّاً إلى صنعاء في كلِّ عطلة. أرِدُها أيضاً بتواتر، خارج العطل، لمهامٍ تعليمية وثقافية أجدتُ حبكها وتنظيمها وبرمجتها الدائمة مع الجِهات الجامعية والثقافية اليمنية.

مرّت أربعة أعوام، منذ رؤيتي أمَة الرحمن في بيت أختي، قبل أن أسكن في شقّةٍ في مجمّع شققٍ عائلية اخترتها بعد عناء طويل: ليست بعيدة جدّاً عن مركز المدينة، ولا تقع في بؤرةٍ سكنيَّةٍ مكتظّة تمنع اللقاءات الحميمية اليومية.

لن أرهقك عزيزي ناهب الأرواح بتفاصيل تعرُّجات علاقتي بأمَة الرحمن خلال السنوات الأربع التي سبقت الشقّة. ليس لديّ أي سؤالٍ أوجِّهه لك حولها، إلاّ إذا أحببتَ أن أقول عنها كلمتين!

ردّ صديقي الغالي الذي يحبُّ دوماً أن أتّجه عموديّاً إلى بيت القصيد:

- لاحقاً، لاحقاً، ربما!...

لا أتذكّر، في كل أيّام تلك اللقاءات الحميمية في الشقّة الصنعانية، كيف كنت أقضي نهار كل يوم حتّى الرابعة عصراً، ومساءه ابتداءً من

العاشرة: لم تكن لكلِّ تلك الساعات، عزيزي هادم المسرّات، قيمةٌ ما. أنتظر بملل مرورها الثقيل لا غير... إذ الحياة، كلُّ الحياة، كانت تبدأ من الرابعة عصراً، وتنتهي في حدود العاشرة!

هذه الساعات السِّت هي أيضاً ساعات حريّة أمَة الرحمن: تغادر خلالها مجمَّعاً خاصّاً مغلقاً يتكوّن من قصر الإمام محمد الهمداني، رأس السلفيين اليمنيين والأب الروحي للجيل الأول من قادة منظمة القاعدة؛ وقصور بعض أهله وذويه، لاسيّما قصر ابنه عمر، الإمام المدلّل الأحمق الذي تجاوز والده تطرّفاً وظلاميّةً في خطاباته الدينية، وإن كان لا يمتلك من تجربة والده ودهائه وأفعوانيته ليفةً واحدة.

تغادر أمَة الرحمن المجمّع لمهام سلفيّة نضاليّة؛ "لرفع آية الحق والإيمان؛ لانتصار دولة الخلافة والإسلام".

في كل الأحوال، لم تكن أمَة الرحمن تصل شقّتي في الرابعة عصراً إلا نادراً جدّاً. كانت تصل عند الغروب غالباً. تنجز أشياء كثيرة خلال تلك الساعتين اللتين تجعلني فيهما أموت شوقاً إليها، أشتعل انتظاراً ولوعة.

تتنقّل في عدة تجمّعات مجالسِ قات نسائية، نصف ساعة هنا ونصفها هناك. ضحك، مرح، تحريضٌ سلفيٍ، دعوات دينية، تنظيمٌ واستقطاباتٌ ناجحة...

تلتقي بحشدٍ من الداعيات، تشرح لهنّ المهام اليومية القادمة، تتابع المسؤولات على الصفحات الإعلامية على الإنترنت والفيسبوك، وإدارة كمبيوترات "جامعة التقوى" التي يترأسها الإمام الهمداني،

والتي تأوي المواقع السلفية والإرهابية المتنكرة.

تتألق في هذه اللقاءات. الكلُّ ينتظرها، يُعجَب بها. مقدراتها على نسج العلاقات الاجتماعية، وتقديم الخدمات للآخرين وحلِّ مشاكلهم، لاسيّما الفقراء والمحتاجين، وتأطيرهم في حزبها السلفي، لا مثيل لها. ناهيك عن أنها جميلةٌ بشكلٍ استثنائي، مثيرة، متوقّدة...

يعلم الجميع أنها مرّت في هذا المنزلٍ أو ذاك، وأنها في طريقها إلى هذا المنزل أو ذاك. ثم، بين منزلين، تأخذ فجأةً حافلةً شعبيّةً تتوقّف قرب باب المجمّع السكني الذي تقع فيه شقّتي...

تصل إلى "جلسات عشقٍ" (كما نسمّيها) أو "بروفات الفردوس" (كما أسمّيها)، تتنقّل من أقصى الحريّة المطلقة والغرام الملتهب المجنون (خلال حوالي ساعة)، إلى حوالي ساعتين من الاستراحات والهمسات الغرامية والحكي في اليوميات البسيطة والثرثرة الممتعة والضحك الكثيف، ونقاشٍ لذيذ أيضاً من موقعين فكريين لا يجمعهما جامع (يتخلّله قليلٌ من استدراكاتٍ العشق الإضافي أحياناً).

عشقٌ مضطرمٌ كثيف، وحربٌ روحيّةٌ صامتة!

– تأخرتِ كثيراً، انتظرتكِ بنهم!

– لذيذةٌ ومهمّةٌ طقوسُ انتظار العاشق حبيبي، أليس كذلك؟

– كدت أموت من الانتظار، قلبي!

– انتظار من تعشق أروع معاناة في الحياة، أليس كذلك؟

– اشتقتكِ حدّ الموت!

– وأنا أكثر!

ثمّ يتحوَّل عدوِّي الروحي إلى توأمي الجسدي!...

لا يتساءل أحدٌ في المجمّع السكني لرأس الظلاميين اليمنيين عمّ تعمل أمَة الرحمن في هذا اليوم أو ذاك، من زارت ومن رأت. يصعب تماماً، في الحقيقة، الشكُّ لحظةً واحدة في تبديدها للوقت في الثرثرة أو التواجد العبثي بعيداً عن البيت.

السبب: مقدرتها على تحريك القطاع النسائي بهذا النجاح المذهل. تفعيل مسيرة مليونيّة نسائيّة سلفيّة، استعراضيّة جدّاً، تدلّ على أنها لا تضيّع وقتها عبثاً. ناهيك عن إيمانها الديني الذي لا تشوبه شائبة، وغلوّ تطرفها السلفي أحياناً...

باعتراف الجميع، هي أفضل داعية إسلامية عرفتها اليمن، وخير زوجةٍ يمكن أن يحظى بها (على سنّة الله ورسوله) ابن كبير علماء الدين في اليمن وواجهتهم الظلاميّة الشهيرة، وإن كان الأب نفسه، الطامّة الكبرى، أكثر المتعلّقين بها (على غير سنّة الله ورسوله)!

لعلّ خروجها من البيت أيضاً، خلال تلك الساعات، يريح، بشكلٍ أو بآخر، زوجها الشيخ عمر الذي كان يغلق باب قصره وينهمك، في اعتقاد الجميع، بالبحث الفقهي والنشاط الديني على مواقع الإنترنت، وعلى صفحته الخاصة الشهيرة في الفيسبوك. فيما هو، في الحقيقة، في حياةٍ دنيويّة محضة، خليلته قنينة ويسكي من العيار الثقيل...

# الفصل التاسع

تصل أمَة الرحمن دائماً في آخر المطاف، على مرأى أكثر المدن محافظةً في العالم.

أتابع، بدقّةٍ ميكروسكوبية وتتيّم خالص، خطواتها وحركاتها منذ الهبوط من الحافلة وحتّى قرع الباب.

الغريب جدّاً: مدير مكتب المجمّع وحارس بابه ينحنيان إجلالاً عند وصولها شقّتي بدلاً من أن يعتبرا مجيئها اليومي، عندما أسكن الشقّة، فضيحةً أخلاقيّة يلزم منعها سريعاً، كما هي العادة في هذه المدينة الجدباء المحافظة حتّى مخّ العظم.

كيف أجادت ترتيب ذلك؟ بِمَ برّرته؟ كيف مغنطتهم وحوّلتهم غلماناً مخلّدين حال اقترابها من المجمّع؟ هل تمتلك شقّةً شخصيّةً في إحدى عماراته؟ هل تزوره يوميّاً أيضاً عندما لا أكون فيه؟...

لن أعرف الردَّ على ذلك يوماً!

هي مضطجعةٌ متحرّرةٌ حتّى من خيط الـ"سترنج" الذي لم أرَ في حياتي خيطاً مثله يحتاج إلى ميكروسكوب لرؤيته. (من أين يحصل السلفيّون على أمثال هذه الخيوط؟ أثمّة مصانع ملابسٍ داخلية خاصّة

بهم "تنتقم" من نُقبِهم، هم الذين يقضون اليوم في الانتقام من شيءٍ بآخر؟ أذلك من باب التقشّف التقيّ المحمود الذي ينصحون به أحياناً؟...).

قربها أعشابٌ قليلة من القات تلعب بها بدلال، تقطف بعض وريقاتها نادراً، وتلوكها بين الحين والحين.

أنا مضطجعٌ بشكلٍ عمودي، نقيُّ الجسد مثلها، رأسي يستند على خاصرتها، أطراف أصابعي تداعب جوانبها وعمودها الفقري وكلَّ منحنياتها الساحرة ببطءٍ وسعادة دائمة... ننظر معاً باتجاه السقف، نتحدث، نضحك، نغمر بعضنا البعض قُبلاً، يحدِّق كلٌّ منّا في الآخر، يستنشقه، نتحدّث ونضحك كثيراً، كثيراً، نتحدّث ونتحدّث...

لحظاتٌ لا مثيل لمتعتها. سعادةٌ كثيفةٌ خالصة!

ألاحظ بعجب، عزيزي هادم الملذّات: تتخلّل هاتين الساعتين، من قبلها، نشاطاتٌ، بالهاتف والإنترنت، صغيرةٌ عاجلة، مدهشةٌ جدّاً.

أدركت، عندما سمعتها تردُّ على هذا أو ذاك، أن أمَةَ الرحمن دماغُ وموتورُ ووهجُ الداعيات السلفيات، قياديّةٌ ميدانيّةٌ مركزيّة.

وهجٌ أسود، داكن الظلمة.

– صفي لي الحياة الثقافية في الجنّة؟؛ أسألها بين مكالمتين هاتفيتين.

– لا أعرف، علمها عند ربّي.

– أهناك كتب، ندوات ثقافية، في الجنّة؟

– الله أعلم!

– أهناك أنهارٌ من عسلٍ مصفّى ولبنٍ وخمر؟

– نعم، ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت!

– هل قرأتِ **رسالة الغفران** لأبي العلاء ووصفه للجنّة والجحيم فيها؟

– تقصد كتاب "كلب المعرّة"، "أعمى البصر والبصيرة"؟

– أين سمعت بهاتين البذاءتين؟

– سمعت بهذين اللقبين الصائبين الرائعين من الإمام محمد الهمداني حفظه الله ورعاه!

يرنُّ الهاتف. أصغي باهتمام لكلِّ كلمة. أعرفها قليلاً قليلاً من بعض شذرات تلك المكالمات. أعجب بها مع كلِّ ذلك، وأحبّها (أعشقها في الحقيقة) وأشفق عليها أكثر فأكثر، أخافها وأكرهها أيضاً...

أسأل أمَة الرحمن:

– في محطّة مترو في باريس رأيت فتاةً اختلطت أشلاؤها بأقلام رصاصٍ متفحِّمة، بعد تفجيرٍ إرهابيٍّ جبان. أيجوز ذلك في الإسلام؟

– الجهاد ضد الشرك فريضة. انتقامٌ لإخواننا المسلمين الذين يسفك النصارى واليهود دماءهم وينهبون أراضيهم كلّ يوم!

– ما ذنب تلك الفتاة؟

– نحن في حربٍ أبديّةٍ ضدّ المشركين. هي حرب، وليست طرفة حبيبي. يقتلوننا كيفما استطاعوا ونقتلهم كيفما نستطيع...

– ألا يزعجكِ ذلك المنظر؟

– أنت تحبُّ الجدل العقيم، لكنك تخشى ساحة الوغى

والمعارك!

ثمّ تستطرد:

- لماذا تكرِّر، حبيبي، الحديث عن تلك الفتاة كلّ مرّة؟

- لا أنام ليلةً واحدة دون أن يجثم عليّ منظر أشلائها ككابوس. كلُّ حياتي تدور في فلكِ مركزه ذلك المنظر!

- فديتك بروحي حبيبي! اِقرأ القرآن قبل النوم، كي لا تقترب منك الكوابيس. لا تنسَ أيضاً دعاء طرد الكوابيس قبل النوم (للتعوُّذ منها)، ودعاء الكوابيس (إذا داهمتك)!

- .......

(السقف الذي تثقبه نظراتي يقرأني، يستوعب كلَّ أحاسيسي... تذكّرتُ أيضاً الأدعية المكتوبة على جدران بيت أختي الدكتورة سميّة، بما فيها دعاء اللوز والفستق، وشتّى أنواع أدعية طرد الكوابيس).

- أحبّك موت حبيبي!

- وأنا أكثر حياتي: أحبِّكِ موت الموت!

# الفصل العاشر

في كلِّ الساعتين اللتين تفصلان الرابعة عصراً عن لحظة قرع أمَة الرحمن باب الشقّة، وبعد قيلولةٍ صغيرة ترفرف إثرها ساعتي الحائطيّة البيولوجية، كنت أعيش طقساً خاصّاً أستحضر، عزيزي قابض الأرواح، تفاصيله الدقيقة بتواترٍ لا أستطيع تفسيره!...

إذا ما أصرَّ حبيبي منهي المسرّات وهادم الملذات (بلهفةٍ وملذّةِ من اندمج مع ثرثرتي) أن أسردها، لأنه يموت مثلي في التفاصيل، فسأقول:

أمكث في تلك البرهة الزمنية واقفاً أمام النافذة الصغيرة، أنظر من شبابيكها صوب الشارع وطريق السيارات، بانتظار أمَة الرحمن وهي تهبط من الحافلة لتذوب وسط معمعة الشارع، تتّجه بثقة صوب المجمّع، بحجابٍ فضفاض هذه المرة (يغلّف حجابها المزرّر الضيّق الذي رأيته في بيت أختي. حجابٌ على حجابٍ على حجاب!) وبكيسٍ يحمل ترمس شاي وحوائج عائلية تقليدية...

تبدو هكذا مجرّد زوجةٍ طبيعية، لا يمكن تمييزها، تعود إلى شقّتها بكل حشمةٍ ووقار:

لحظةٌ مهيبةٌ مقدّسة لا أريد أن تفوتني مرّةً واحدة.

في تلك الساعة والنصف أو الساعتين اللتين ألتصق خلالهما بالنافذة، لا أكفّ عن النظر باتجاه اليسار، نحو شرفة منزلٍ يواجه نافذتي. تتسلّل نظراتي وراء باب صالونه نصف المفتوح.

السبب: ساعة الانتظار هذه هي أيضاً لحظات طويلةٌ يوميّة مقدّسة لسيّدٍ أبيض الشعر، قصير القامة، يشبه إسحاق شامير، لكنه مهترئ الجسد، هشّ الخطوات والبنية، يسكن ذلك المنزل، يستعدّ للاحتفال بشيءٍ ما، بكلِّ حواسه:

يخرج السيّد بعد الرابعة من المغسل في الدور الأول، وقد حلق ذقنة بعنايةٍ ملحوظة. خطواته في صالون المنزل بطيئةٌ بشكلٍ استثنائي، رغم أنه لم يتجاوز الخامسة والستّين تقريباً.

يتجّه نحو مرآة خزانةٍ يهيّئ نفسه أمامها للحظته التاريخية الخاصة.

يرتدي بنطلوناً ومعطفاً بنفس اللون، أخضر في الغالب، وقميصاً أنيقاً أبيض. يضع بنفس البطء ربطة عنقه الحمراء (هو الوحيد في صنعاء الذي يرتديها في هذه الساعة من العصر، لاسيّما في هذه المنطقة الشعبيّة). يضعها بعنايةٍ خاصّة، بتركيزٍ استثنائي...

يراقب نفسه في المرآة كثيراً. يخرج إلى الشرفة مرّة أو مرتين بحثاً عن شيءٍ ما... أرى من نافذتي شبح زوجته وبعض ذويه يعبرون الغرفة لإمداده بمنديلٍ أو جورب...

تدوم هذه الطقوس طويلاً. أتلصّص في تمعُّن على ما يتيسّر رؤيته. واضحٌ جدّاً أن موعد خروج السيّد ليس مجلس قات، لأنه لا يرتدي

الأزياء الشعبيّة الخاصة بمجالس القات، ولكن بدلة مدير مكتب أو موظفٍ مدنيٍّ مرموق.

ثم ينفتح باب البيت في الطابق الأرضي. تودِّعه زوجته التي ألاحظ شبحها عندما يُغلَق الباب فقط. ترشُّه بكثيرٍ من العطر. يتقدّم منقبضاً ببطء بضعة أمتار باتجاه باب سور البيت. يفتحه بنفس الإيقاع شديد البطء.

يغلقه بالقفل. يتقدّم خطوةً باتجاه الرصيف. توتّرٌ وقلق. خطوتان... يتقدّم. يراقب حواليه وأمامه، يندمج في محيط كل خطوة، يعيشها بالطول والعرض...

يخطو في الشارع بسرعة السلحفاة، يراقب حوله باهتمام أكثر فأكثر. يتقدّم في ضجيج عنيفٍ ممزوجٍ بالغبار... ثم يقترب من الرصيف حيث تمرّ السيّارات بسرعةٍ عشوائية، في مدينةٍ لا تحترم سياراتها ضوءاً أحمر.

ينتظر جاري (هكذا أسميه بيني وبيني) طويلاً حتّى يرى السيارات القادمة بعيدةً جداً عنه بشكلٍ كافٍ ليعبر الطريق بخطواته البطيئة دون أن تدهسه سيّارة. خوفٌ دائمٌ. انتظارٌ كئيبٌ قاتل...

أراقب كلَّ شيء، قلبي وأعصابي معه. أتمعّن في حركاته ونظراته. تجذبني، تلهيني... بها أعبر رصيف الوقت الذي يرفض أن ينتهي، بانتظار الحافلة التي ستخرج منها أَمَة الرحمن...

أراقب، بين كل خطوتين يتقدّم بهما، السقوفَ الصدئة للسيارات العابرة، قذارات المدينة، كل هؤلاء البشر: جحافل من معدومين، أنصاف موتى، مضرّجين بالترميمات، يستعدّون لطقوس مجالس

القات بعد غداءٍ سريع ولهاثٍ وراء حفنةٍ من أعشاب القات، في هذه الساعات المحمومةً الكهربائية...

أستحضر غالباً، وأنا أراقب جاري، ذكريات التفاصيل الصغيرة في الأربع سنوات التي فصلت لقائي بأمَة الرحمن في بيت أختي عن بروفات الفردوس:

أصرّتْ أمَة الرحمن على إقحامي في دوّامة حياتها. كان سبيلها للوصول إلى ذلك تقليديٌّ فتّاك: إغراءات، امتناع، بكاء، ضحك، مطبّات، غزل، نصف امتناع، ربع امتناع، لعب بنات، لعب عيال...

كان قرارها بضمِّنا وتوحُّدنا (كما باحت لي لاحقاً) قديماً جدّاً.

المهم: أضافتني كتناقضٍ جديدٍ إلى حياتها، يعالج كيمياء تناقضاتها القديمة بمزيدٍ من التناقضات، على هدى الحكمة العربية المجنونة: "وداوني بالتي كانت هي الداء".

في البدء امتنعتُ، تحفَّظتُ، خفتُ، تردَّدتُ... ثمّ هرولتُ درجات السُّلَّم أربعَ أربعَ. أقتحمُ، أناضلُ، أتعثّر، أعشق بشراهة...

لعلّي كنت أبحث عن أشياء عديدة لم أستوعب بعضها حتّى الآن. عن ذاتي الأولى، عن جذورٍ غائرةٍ عميقة. أو ربّما عن قاتلة نجاة، لا أكثر أو أقل، قاتلتي.

عَمَّ كنت أبحث بالضبط عزيزي الغالي فاضح الأسرار وكاشف الأخبار؟

أحقاً أنّ كلَّ عشقٍ هو ملءُ فراغٍ ما، انتقامٌ من شقاءٍ لا علاج له؟

يعبر جاري طريق السيارات بنجاحٍ، يتجاوز الرصيف المقابل، يتقدّم يميناً، يساراً. سلحفاةٌ حقيقية. يتاخمُ حانوتاً لبيع إطارات

السيّارات، يحاذي آخر لبيع العصائر...

تليهما محطة بيع بنزين عشوائية قذرة يعبرها، بقلقٍ وتركيزٍ استثنائي، متجنِّباً أن يلمسه المارّة والمتسوّلون المزدحمون في الجولة، ويدعكوا بدلته النظيفة الأنيقة التي بذل وقتاً طويلاً في ارتدائها بشكلٍ نهائي.

تبدأ المرحلة الثالثة (الأكثر صعوبةً) من دورته الدمويّة: عبور نصف محيط جولة طريق السيارات ابتداءً من محطة البنزين، وانتهاءً بنقطة تعيده إلى الرصيف المواجه لمنزله.

ازدحام، فوضى، يفاوضهما بصمت. يذوب في الشارع. يتقدّم بمزيدٍ من البطء. لا ينظر إليه أحد، لكنه ينظر في كلِّ وجه، في كلِّ صغيرة وكبيرة، وكأن مهمَّته أن يتفقّد كلَّ شيء يعبر قربه في هذه المنملة التي يدهس كلٌّ واحد فيها الآخر دون اعتذار.

نصف ساعة تقريباً وأنا ألمحه من نافذتي، أبحث عنه، أراقبه يفاوض كل خطوةٍ من خطواته، يتقدّم ببطء، يتوقّف كثيراً...

يكمل الدوران حول نصف محيط الجولة، ليبدأ العودة باتجاه الرصيف المجاور لبيته... يتقدّم، تبدو عليه أسارير نصرٍ وسعادة. يبتعد عن حلبة ملاكمة جولة الشارع، يقترب من بيته. يعود منتصراً من جديد...

أحملق في محيّاه وهو يعود من مغبّة رحلته سعيداً كمن عاد من وغثاء جولة حول العالم. يحتفل بكل خطوةٍ في طريق رجوعه الظافر. ابتسامةٌ شاحبة. بهجةٌ عميقةٌ صارخة!

يقترب من باب البيت بنفس الانسياب والبطء، يفتح قُفله بتردُّدٍ

وصعوبة... أحدِّق فيه بمزيدٍ من الاهتمام والتركيز.

تستقبله زوجته بحفاوةٍ وشوق، عناق...

المجد للحياة!

المجد للحياة!...

أعرف حينها أن من أنتظرها ستصل قريباً، بعد عشر دقائق، عشرين، أو خمسين دقيقة، لا أكثر...

# الفصل الحادي عشر

تسبُّ أمَة الرحمن كثيراً، في بعض جلسات عشقنا، زوجَها الإمام عمر: الموضوع الشخصيّ الوحيد الذي تفضي لي بتفاصيله بطيب خاطر. تحتاج لذلك كثيراً، في الحقيقة!... تكرِّر سبَّه أمامي، تكرهه بضراوة. تنتقم منه في كل لحظة. سعادتها الكبرى: الانتقام الدائم منه!

كلُّ لحظات حياتها، كلُّ ما تفعله في الحقيقة، انتقامٌ مركّب. تنتقم دوماً من هذا بذاك، وإن كنت لا أعرف أحياناً من هو هذا ومن هو ذاك!

عرفت منها (لعله السرّ المهم الوحيد الذي أفضته لي عن حياتها الخاصّة) أنه يستغلّ غيابها لتناول الخمور بحرّية (الويسكي، لا شيء غير الويسكي: شعاره المقدَّس) بعد إغلاق باب غرفته، وانهماكه في أعين الآخرين بالأبحاث الفقهية.

بينها وبينه ميثاقٌ ضمنيٌّ مقدّس: لا تبوح أمَة الرحمن لأحد بإدمانه، ويسمح لها بقضاء الساعات الست كيفما تشاء، دون أن يقضّ مضجعها لحظةً واحدة!...

تزداد حملات تكفيره خلال هذه الساعات التقيّة (كما يلاحظ من يتابع نشاطاته على الإنترنت): اشتهر الإمام عمر بالسبّ القادح للملحدين والشيوعيين والعلمانيين (حتّى وإن كانوا متديّنين) وتكفيرهم. ماكينة تكفير. لا يمتلك ذكاء وخبث أبيه، في كل الأحوال، مثله مثل أبناء رؤساء وملوك العرب في الثمانينيات والتسعينيات من القرن المنصرم.

– ماذا تقولين للإمام عمر حول إدمانه؟

– أقول له: الله يهديك!

– ماذا يردّ؟؛ أسألها.

– الله يهدينا ويهديك!

– الله يهديه ويهديك ويهدينا جميعاً!؛ أعلِّق.

– أحبَّك عمري!

– أحبِّك وهجي!

لكنها لا تلفظ أمامي حرفاً عن حياتها الخاصّة خارج شتمها للإمام عمر، لاسيّما عن العلاقة الغامضة جدّاً التي تربطها بوالده!

تمنعني بصرامة من مجرد الاقتراب منها والتساؤل حولها. تغلق سبيلي بنظرةٍ سوداء إذا ما حاولتُ تسريب سؤالٍ يتلوّى بشكلٍ غير مباشر حولَ عواطفها إزاء "الغُورُو"[١]، منوِّمها المغناطيسي! وكنت أخاف فعلاً من غضبها، لأنها قادرةٌ على مغادرتي دون رجعة إلى الأبد.

ما يهمُّني دوماً هو عدم دعكها. أخاف بشدّة أن تتركني فعلاً.

١ الغورو: معلّم الحكمة في الهند، لكنه "إمام المجاذيب" عند الأفارقة.

تعوّدت في الحقيقة، بسعادة عنيفة، على طقوس "بروفات الفردوس" مع أمَة الرحمن: عشقٌ خالص يزداد كثافةً وتعلّقاً وتجذّراً، انغرست بذوره في حياةٍ سابقة.

ازدادت رغباتنا خلال تلك البروفات الفردوسيّة بالالتحام الجسدي الطويل الناعم، وبالهروب من تراجيديات حياتينا بالغرام الملتهب. كلانا كان بحاجةٍ عضويّةٍ مستأصلة إليه، في حياته الثانية التي رماه فيها قدَرٌ غادر.

تمارس أمَة الرحمن العشق بإخلاصٍ ديني. تغمض عينيها معظم الوقت. تهمهم وتتمتم بآياتٍ سريّة مع تماوج التوحّد. تستسلم وتمارس عبوديّتها بخضوعٍ دينيٍّ كليّ...

ثمّ، عندما تفتح عينيها تفتحهما بحق. تتحوّل في لحظةٍ ما إلى كاميكاز عشق، جهاديّةِ توحّد تمارسه كجيشٍ مغامرٍ مقامرٍ شعاره: "البحر من ورائكم، والعشق من أمامكم، بين أحضانكم، داخلكم، خلفكم...".

تمرُّ هذه الطقوس دوماً ببهجةٍ ومتعةٍ خالصتين، رغم أنها مغامرة المغامرات. أمُّ المغامرات والمخاطر: كنتُ، عزيزي عزرائيل، كمن ينام في بيشاور (مدينة بيت ابن لادن) مع سبيّته، أجملِ هديّةٍ سقطت من السماء إلى قدس أقداس قلبِه، زوجة ابنه، وعلى بعد كيلومترات قليلة من مقرِّ مجلس إدارة القيادة العامّة لتنظيم القاعدة!

لا يعكّر هاتين الساعتين الرقيقتين، السعيدتين جدّاً، إلا هاتفٌ يصلها من هذه المناضلة السلفيّة أو تلك الداعية، لأمورٍ إجرائية. ينتظرن دوماً تعليمات أمَة الرحمن وآراءها كقائدةٍ سلفيّةٍ شديدة

الحضور والفعالية، لا مثيل لتوجيهها وإدارتها وإرشاداتها الديناميكية الفذّة، مرتبطة عضوياً بالإمام الأكبر...

ألاحظ، وإن كنت لا أدرك فحوى الهاتف: تجيد أمَة الرحمن الردَّ العمليَّ السريع، وحلَّ أية إشكاليّةٍ تنظيمية، بكلماتٍ بسيطة، وبروحِ مهندسة فذّة.

تنساب في ردودها، بهدوءٍ وثقة، مصطلحاتٌ دينية جميلة، بصوتٍ جديدٍ متخشِّب حيناً، وضامرٍ حيناً آخر، يختلف عن صوتها معي، كما لو كانت تؤدّي فريضة صلاة عند وصول الهاتف، وليست في جلسات عشقٍ عميقة.

تستطيع أمَة الرحمن (على العكس منّي تماماً) تغيير قبّعة صوتها في لمحة بصر!

ثم تنتهي المكالمة، تنسى أمَة الرحمن حديث الهاتف كليّةً، تستعيد قبّعة صوتها الشجيّ النديّ الضاحك العاشق. (صوتها ومضاتٌ ملوّنة، قوس قزح). تعيش لحظة بروفات الفردوس بكلِّ خلايا جسدها، وتواصل ما تبقّى من الساعتين الخالدتين بدماغٍ ونخاعٍ شوكيٍّ مكرَّسين لي وحدي من الطرف إلى الطرف...

لا يزعجها ويستفزُّها ويغلي أليافها العصبيّة بحق إلا هاتفٌ نادرٌ جدّاً، يأتيها من زوجها وهو في جلسات تأمّلاته الفقهية بالويسكي.

لعلها تعرف من نكهة كلماته نوع "السَّكْرة" التي يعيشها. بعضها رومانسيّ (إباحيٌّ مخرِّفٌ، في الحقيقة. تسخر منه وتحتقره)، وبعضها مفترسٌ مقيت، لاسيّما عندما يأمرها، عند الاتصال، بالعودة حالاً.

تلعنه بأفدح اللعنات الدينية التقليدية، يتخلّلها غالباً دعاء "الله يحرق قلبه" الرومانسيّ جدّاً: حرّيتها، في هذه الساعات الست، مقدّسة. لا يحقُّ له مسُّها...

يحصل ذلك في كلِّ مرّةٍ يأتي لزيارته صديقه الحميم، الشيخ عبد الرحمن، أحد كبار شيوخ اليمن وأشدُّ أعداء مشاريع قوانين منع الزواج بالقاصرات (بحجّة أن سيّدنا محمد تزوّج من أمِّنا عائشة وهي في التاسعة)، ليقضي معه اليوم وينام في بيته، ويشاركه جلسات الويسكي السريّة الحميمية التي لا تعرفها، في كلِّ مجمع قصور "الغُورُو"، إلا أمَة الرحمن فقط!

لا تحبّ أمَة الرحمن الأوامر العسكريّة للإمام عمر بالعودة حالاً، لأن ثمّة ميثاقاً ضمنيّاً بينهما: لا يعرف أحد في الوجود أنه يدمن الويسكي، ولا يضايقها إطلاقاً خلال ساعاتها الست.

ولأنها، قبل هذا وذاك، تكره رؤية الشيخ عبد الرحمن بشكلٍ خاص، كما تكره رؤية زوجها بالتأكيد، وكما تكره كلّ حياتها التي قُدِّر لها الخراب الكليّ، من أزل الآزلين...

لا تحبُّ في الحياة، كما تقول لي، إلا هذه الساعات الصغيرة على الفراش، بجانبي. "لا أعشق إلا أنت!"، كما تكرِّر...

إلا أنا؟... لا أعتقد!

"لماذا؟"؛ تفلت بشكل مباغت هذه الكلمة من صديقي هادم المسرّات بحبِّ استطلاعٍ تلصّصيٍّ مفاجئ!

أردّ:

– ثمّة سرٌّ يتدحرج في نظراتها، عزيزي قابض الأرواح، يخونها

قليلاً عندما تقول هذه العبارة!

يعتذر على مقاطعته:

- عفواً، عفواً، استرسلْ لو سمحتَ من حيث توقّفتَ.

أستطرد:

تندعك أمَة الرحمن وتنزعج بشدّة: تعرف أن زوجها لا يتّصل بها خلال ساعاته الحميمية الست (قبل أن ينام حتّى موعد صلاة الفجر) إلا لأن لحظاتٍ عصيبةً يقضيها الشيخان المدمنان، تحتاج إلى تدخُّلها السريّ السَريع.

يحدث ذلك عندما يتدحرج أحدهما على السُّلّم مثلاً، أو عندما يشتركان في عزف أوبريت تقيؤٍ وضجيج لا يتوقّف...

الغريب أنّها في هذه الحالات لا تغادر شقّتي جرياً لتبحث عن تاكسي يقودها إلى المنزل فوراً لإنقاذ السكرانَين!

يحدث، بدل ذلك، شيءٌ غريبٌ عجيبٌ جدّاً، أنا وحدي المستفيد منه بشكلٍ مباغتٍ سعيد:

في رغبةٍ للانتقام من اتصال زوجها بها (فلسفتها الانتقام، وحياتها انتقامٌ دائمٌ من هذا بذاك) وإدانةً لأمره العسكريِّ بعودتها حالاً (الذي يكسر كيفَها ويعكّر أرقَّ وأحلى ساعات يومها، كما تقول) تدعوني (كلّما جاءها أمرٌ منه بالعودة قبل انتهاء الستّ ساعات) لحمل مرايا الشقّة ووضعها في أماكن مختلفة من السرير، وذلك لممارسة بعض الأوضاع الغرامية التي كانت تبدو لها صعبةً مستحيلة، لا تطيقها، وتفضِّل تأجيلها على الدوام!

خلال نصف ساعةٍ من المبادرات الحميدة والانتقام المبارك،

أعيش لحظات كثيفة مرتعشة عبقريّة، وأوضاعاً غراميّةً مشقلبةً بهلوانيّةً جدّاً في بعض الأحيان، تزيدها تداخلات المرايا تعقيداً وإبداعاً وإدهاشاً.

نذوق فيها لذّةً عنيفةً تُصرُّ على أن نشاهدها معاً في المرآة، ونشاهد كيف نشاهدها أيضاً!

تنتقم منه بضراوة، تغمرني بلذَّتها بعنف، تنتقم، تزداد شهوتها، تنتقم...

أنتظر لذلك بشوقٍ دائم هواتف الإمام عمر ولقاءاته الدوريّة بالشيخ عبد الرحمن في مجمّع قصور الإمام محمد. وحده الانتقام منه يغمرني بتلك النصف ساعة من اللذات الجديدة العاتية، ويضفي على عشقنا المحموم هاوياتٍ وأبعاداً جديدة أتمنّاها دوماً بلهفةٍ ضارية!

طوبى للنفاق الديني وللتناقضات الوجوديّة الصارخة!

تغادرني باتجاه الشيخين اللذين يعلم الله في أية حالةٍ ستجدهما، منتشيةً سعيدةً جدّاً بعد انتقامها، وإن كنت الأسعد...

# الفصل الثاني عشر

لعلّ في كلِّ سلفيّةٍ ينام ذئبٌ جائعٌ للعشق، أخطبوطٌ بسبعين ذراعاً، كلُّ ذراعٍ منه حوريّةُ عِين. ربما، ربما...

أو لعلَّ أمَةَ الرحمن تهرب بكلِّ بساطة إلى فردوس عشقنا الرقيق الناعم لنسيان شيءٍ ما، عنفٍ ما، اغتصابٍ ما...

تنتقم من شيءٍ لا أعرفه بعشقٍ إنسانيٍّ صادقٍ نقيٍّ في أحاسيسه، عميقٍ في قبلاته، زاخرٍ في انزياحاته، عريقٍ في انبجاساته...

كلُّ ما أعرفه أنّ نجاح هذه العلاقة العضويّة الدائمة كمنَ دوماً في سريّتها الدقيقة القصوى.

سألتها يوماً في بدء بروفات الفردوس:

- أودّ معرفة رقم هاتفك، لو سمحتِ!

- لا يمكن، حبيبي!

- أقصد: أحتاج رقماً واحداً فقط من هاتفيكِ الاثنين، لأرسل لك أخباراً بين الحين والحين، ورسائل منتظمة.

- لا داعي لذلك، حبيبي!

- تفضّلين الرسائل الورقيّة إذن؟

– لا، حبيبي!

– كيف ستعرفين بموعد مجيئي إلى صنعاء إذن؟

– عبر أختك الدكتورة سميّة، لا غير!

لعلّ أمَة الرحمن المعشوقةُ الوحيدة في الوجود التي ترفض أي اتصالٍ هاتفيّ من عاشقها، أي نُصَيصٍ هاتفي (إس إم إس)، أية رسالةٍ ورقية، أي أثر!...

لأسبابٍ أمنيةٍ خالصة؟ ربما، لا أعرف!

لأسبابٍ فلسفيةٍ عميقة؟ ربما، ربما: العشق الحقيقي المتأبِّد هو ذلك الذي لا يترك أثراً!

لأسباب غرامية باطنيّة خالصة؟ ربما، من يدري؟

إذ، لعلَّ تبديد العشق بالنُصيصات والاتصالات الهاتفية المتواترة، التي تستنزف وتُفرغ أطنان الأشواق الغرامية وآهات اللوعة المشتعلة، يقلّل بالضرورة من كميّة اضطرام العشق ولوعة الشوق للجسد، وكأنّ هناك معادلةً رياضية:

كمية العشق (ك) مضروبةً في تواتر النُصيصات (ن) = مقداراً ثابتاً (ث).

أي إن زيادة كميّة أحد طرفي حدّي أيمن المعادلة (ك) أو (ن)، يقلّل من حجم كميّة الحدّ الثاني!

ربما، ربما... لعلّ ذلك يفسِّر سبب الرسائل القليلة جدّاً التي تبادلها ثنائيٌّ تاريخيٌّ قضى عمره عشقاً: جيني وزوجها كارل ماركس (الذي كان يوقِّع رسائله لها باسمه السرّي في علاقاتهما الحميمة: "العربي"، بسبب لونه النحاسي الفاتح، كما يبدو!).

بالتأكيد، بالتأكيد... لأني كلّما كِنت أعود من صنعاء إلى باريس، أظلُّ مهووساً ليل نهار بأمَة الرحمن، لا أفكّر إلا بالعودة إلى حضنها الرقيق الأبيض الدافئ، إلى رائحتها التي تعصف بي طوال اليوم، وبشرتها الغضّة اللميسة الناعمة التي أموت غراماً في مداعبتها و"تمليسها" ولعقها الدائم...

أعود بعدها إلى صنعاء لمدّة أسبوعين أو ثلاثة، بضع مرات كل عام.

في كل مرة، منذ اليوم الأوّل، نعود إلى بروفات الفردوس. عناقٌ محموم، توحّدٌ طويل. (الجنس عند السلفيّات طقسٌ مقدّس. المجد للسلفيّات!).

ثم ثرثرةٌ على الفراش. جسدان عاريان في نعيم استرخاءٍ كلّيٍّ لا نعيم في الدنيا بمقامه.

تتخلّل ساعة الاسترخاء، في السنوات الأخيرة، طقوسٌ جديدة: تتوجّه أمَة الرحمن نحو حقيبتها، تبحث عن كمبيوترها المحمول: أحدث وأخفُّ الماكينتوشات دوماً.

هذه الفتاة التي تخرج من الحافلة بحجابٍ يلفُّ حجاباً وحجاباً، لا تمشي في الشقّة إلا عارية!

في الخارج: طبقات حجاب بعضها فوق بعض. للتمويه على العدو، يتغيّر الحجاب الخارجي بين الوصول إلى الشقّة ومغادرتها.

معي: تعود إلى نقاء الينابيع؛ تفتخر باستعراض سحر جسدها؛ تحتفل بجماله اللدنيّ الخالص: جسدٌ باذخ الرشاقة، مثاليّ المقاسات، ذو خصر يمكن الإحاطة به بنصف يد، ينساب منه انحناءٌ تكوّريٌّ معتدلٌ ساحر، لانهائيّ الإثارة والفتنة!...

تضطجع وماكينتوشها الفضيّ الأنيق على صدرها، أسفل نهدين تفتخر بجمالهما ورغدهما وتبرعم حلمتيهما...

تحتاج، خلال ساعتَي ثرثرتنا، في أجمل لحظات الاسترخاء، نصفَ ساعة على الأكثر من استخدام الإنترنت على الماكينتوش (عبر هاتفها المحمول المرتبط بشبكة الأقمار الصناعية)، ليعرف آخرون من رفاقها (من يدري؟) أنها حاضرةٌ في شبكة الإنترنت، في الفيسبوك، تناضل في مكانٍ ما...

- هل يستخدم الإمام الفيسبوك؟؛ أسألها.

- نعم.

- ألا تضايقه صور الدعايات الخليعة في الحاشية اليمنى من صفحة الفيسبوك؟

- لا ينظر إليها.

- أيجوز في الشريعة استخدام الفيسبوك، غوغول، الإنترنت؟

- كلُّ ما يسمح بنشر كلمة الله يجوز ويلزم استخدامه. ثمّة مواقع دينية على الإنترنت أنت أكثر من يحتاجها حبيبي، ستهديك إلى طريق الحق والصواب.

- أتنصحينني بفتح صفحةٍ شخصيّةٍ لي في الفيسبوك؟

- لا، حبيبي!

- لماذا؟

- لأن كلَّ ما ستكتبه سيزعزع العقيدة ويفيد المشركين والضالّين. نحن وإيّاهم في حربٍ يوميّة لا تُبقي ولا تذر!

أرمقها، وهي تستخدم الإنترنت، دون إثارة اهتمام: تردُّ على

إيميلاتٍ باقتضاب. تتنقّل بين صفحات معيّنة في الفيسبوك. تعليقٌ هنا وآخر هناك...

تبعث روابط محاضرات على يوتيوب، أو روابط مواقع سلفيّة ظلامية هامّة.

أحفظ اسم بعض الصفحات (التنكريّة بالتأكيد) التي تردّ عليها (باسم تنكرّي بالتأكيد): جهاد عبد الحق، غالباً. وتلك التي تردّ عليها باسم مقتضب: أمَة الرحمن.

نقابٌ على نقاب، زئبقٌ على زئبق!...

– ماذا لو عرف زوجك أو أبوه بلقاءاتنا في هذه الشقّة؟

– سيحرقاننا معاً هنا بنارٍ بطيئة جدّاً، في التوّ!... نهايةٌ جميلةٌ لعاشقين قديمين، أليس كذلك حبيبي؟؛ ردّت بابتسامةٍ خفيفة!

– لماذا لا تهربين من هذه المدينة وتأتين للحياة معي خارج اليمن؟

– لا أحب الغربة حبيبي!

– وإذا جئت أنا للحياة الدائمة هنا، في صنعاء، أستتركينهما؟

– لا!

– تكرهين زوجك مع ذلك كما لا تكره امرأةٌ زوجاً؟

– جدّاً... لكني مخلصةٌ لأبيه، لن أخيّب ظنّ منقذي وقرّة عيني عافاه الله وأطال عمره!

– بعد كلِّ سنوات عشقنا هذه، ألم تقطعي معه هذه العلاقة شبه الغرامية؟

– حاولت! لكن ما العمل؟ لم يرضَ!

تختنق كلماتي. غليان في دماغي وشراييني يشعله هذا الغُورُو الذي

نوّمها مغناطيسيّاً منذ أن رأته. إرهابيٌّ ظلاميٌّ مشعوذ، محاضراته منتشرة تُلهم كلَّ القتلة، لاسيّما المجاهدين الانفجاريين!

لاحظتْ صدمتي. حاولتْ تلطيفها قائلةً:

– مجرّد علاقة محبّةٍ بأبٍ روحيّ!

"لكن ما العملَ؟ لم يرضَ!"، قالت.

أتأمّل هذه العبارة التي تحتاج إلى مؤتمر علماء نفس لفكِّ شيفراتها.

كيف غسل هذا الوحش دماغها؟ كيف يمكنها أن تكون مرتعَ كلِّ هذه التناقضات المتلاطمة؟ كيف لي أن أحتمل البقاء معها رغم كلِّ هذه الشعبكات التي تجعل المرء مجنوناً في خمس دقائق؟...

الحقّ أنني لا أستطيع هجر هذه الجنيّة، رغم كلِّ ذلك! لسعتني لسعاً. أعشقها فعلاً بكلِّ تفاصيلها اليوميّة الصغيرة، بجمالها وجنونها وصهارة بركان تناقضاتها. هي تراجيديةُ حياتي الجديدة، هاويتي وكلُّ دوخاتي!

يا إله الكون، ما العمل؟...

أردّد بيني وبيني على الدوام: لا حلّ لي غير انتزاعها من شبكة الصياد، شيخها الغُورُو، "عليه لعنات الله والملائكة والشياطين أيضاً"، حسب تعبير جدّتي نور!

لكن كلما اقتربتُ من ذكر اسمه تصدمني أمَة الرحمن بهذه العبارة:

– ألم أقل لك: لا تتحدّث عنه، لا تذكر اسمه؟

ثم تشرع، بشراسة ذئبٍ جريح وبنظراتٍ داكنة تخيفني، بمغادرة الشقّة وهجري النهائي.

أتوسّل إليها أن تبقى، وأعدها أن لا أذكر اسمه مرةً ثانية!

ثمّ أعود إلى باريس، حيث كابوس الغُورُو وطيف أمَة الرحمن وذكريات نجاة تختلط جميعها في كل لحظاتي وسكناتي، لا تفارقني لحظةً واحدة...

عذابٌ وموتٌ يوميّ، بانتظار الرجوع إلى أمَة الرحمن وجلسات العشق التي تعيدني إلى الحياة من جديد.

سؤالي الملحّ: أيمكنك أن تشرح لي، عزيزي قاتل الرغبات وكاسر المسرّات، ماذا عملتُ من جريمة كونيّة شنيعة بشعة لتَغرق حياتي في هذا المضيق الخانق، هذه الدوّامة القاتلة؟

# الفصل الثالث عشر

صار الفيسبوك ملاذي عند كلِّ عودةٍ من صنعاء إلى باريس! أتمرّغ في صفحاته بحثاً عن كل حرفٍ تكتبه أمَة الرحمن أو شخصيّاتها التنكّرية، وجيش رفاقها وتابعيها، وصفحة زوجها المجذوب الإمام عمر، وأبوه إمام مجاذيب اليمن، وكلّ شبكاتهم الظلامية الأخطبوطية...

أسَّست صفحةً شخصيّةً لي، باسمٍ تنكُّريٍّ أنا أيضاً: مشتاق عبد الباري (الردماني)!

لعلّي أصبت في اختيار لقب (الردماني) الذي يبدو الاسم حقيقياً بفضله.

طلبتُ صداقة أمَة الرحمن، وجهاد عبد الحق. لم تقبلاني. ربما لأنهما استوفيتا رقم الـ ٥٠٠٠ صديق فيسبوكي (أو "المفسبك"، كما يقال) والذي لا يمكن تجاوزه. انضممتُ إلى الـ ١٢٣٥٥ متابعاً رسميّاً أتوماتيكيّاً للصفحة الأولى والـ ٢٧٨٨٣ متابعاً للثانية.

لاحظتُ: آلاف "اللايكات" والمعلِّقين على كلِّ منشورٍ تكتبه. لا أظن أنها تقرأها لكثرتها وعجل وإسفاف ما يكتبه معظمهم.

كنت أحشر نفسي باستمرار للتعليق على كلِّ ما تكتبه أمَة الرحمن، من وجهة نظرٍ علمانيّة مناهضة جدّاً له في الغالب، لكن بلغة شديدة الأدب والاحترام، وبطرحٍ وأسلوبٍ لا يشبه أو يكرِّر أحاديثنا في صنعاء، حتّى لا تشكّ في هويّتي وأنفضح!

لم أرَ منها "لايك" واحداً على تعليقاتي، غير أن قطيعاً من رفاقها كان يردُّ عليّ بغلاظةٍ وبذاءةٍ في الغالب. يجدون سعادةً في السبّ الرخيص السريع، لم أستطع استيعابها حتّى الآن!

كنت أرى بعض أسماء هؤلاء على شاشة ماكينتوشها، أثناء "بروفات الفردوس" في صنعاء، عندما كنت أرمقها بسريّة وهي تتجوّل بسرعةٍ وحذر في الإنترنت.

تابعتُ نشاطات ذلك القطيع يوميّاً. ("مختبر الشتم"، أسمّيه). أدركت أخيراً أن معظمهم موظفون رسميّون في شبكات الحركات السلفية والمتطرّفة، يديرون مئات الصفحات الاجتماعية العامّة، منتدياتٍ فيسبوكية مفتوحةً أو مغلقة، تجمُّعات خاصّة، تطبيقات برمجياتِ نشرِ فقراتٍ دينية تنطبع بشكل أتوماتيكي كل بضع ساعات على الصفحات الخاصة للمشتركين بها من "المفسبكين".

عملٌ سرّيٌ منظّم. أسماء تنكّرية في كلِّ مكان. جيوشُ ظلام. جهادٌ سلفيٌّ بأحدث التقنيّات وبعبارات من عصور الأولّين.

القرون السحيقة تنفجر من الضحك!

يلتفّون غالباً لكتابة تعليقاتٍ تهاجم أي منشورٍ مدنيٍّ يدعو لحريّة الضمير والتفكير، لإرباك صاحبه وإثارته أو الضغط على صفحته والهجوم الجماعيّ عليها لإغلاقها من قبل إدارة الفيسبوك أحياناً.

(أجواء الجحيم لا تحتمل التراتيل). دون الحديث عن نشاطاتهم الإرهابية الخفيّة على الإنترنت، التي لاحظتُ شذراتٍ طافحةً منها هنا وهناك...

نضالٌ رقميٌّ كثيف، حضورٌ سلفيٌّ جرّار في فضاءٍ افتراضيٍّ مدنيّ. حربٌ روحيّة دائمة لا تقلُّ شراسةً عن الحرب العسكرية التقليدية.

مع تواتر نشاط صفحتي الخاصة، وجودة ووضوح منشوراتها، ارتفع عدد "أصدقائي" المفسبكين وبلغ الخمسة آلاف. كنت أقبل صداقتهم الفيسبوكيّة بشكلٍ شبه أوتوماتيكي.

أدركت مؤخراً جدّاً، عندما دخلت في الصفحات الخاصة لهؤلاء، لأقرأ بعض محتويات ما يكتبون، أن ٤٧٠٠ منهم تقريباً مزيجٌ من بلداء، أو ممجِّدين للطغاة، أو ظلاميين، أو رعاع فعلاً.

جميعهم، بشكلٍ مباشرٍ أو غير مباشر، جنودٌ حقيقيّون أو افتراضيون لمعشوقتي أو معجبون جدّاً بصفحتها في كلِّ الأحوال!

كلّما كتبت منشوراً صغيراً لزمني أن أضبط أعصابي عند الرد، وأن أواصل بصبر خطاب التنوير الذي لا يراوغ أو ينحني أمام استفزاز معظم ردودهم وسبِّهم ورعونتهم وتجريمهم.

الكتابة قربهم، صديقي عزرائيل، أشبه بالمشي فوق حبّات البَيض!

يفاجئني نديمي الغالي بالتعليق قائلاً:

– لا جديد: الظلمات تمارس بشكلٍ طبيعيٍّ عداءها الشرس للنور، وشغفها الجينيّ بإطفائه!

ثمّ يطلب منّي أن لا أعلِّق على تعليقاته فأقطع حبل أفكاري:

– عفواً. استرسلْ، استرسلْ، لو سمحت.

أستطردُ:

صدقت صديقي الغالي!... لزمني أيضاً بذل مجهودٍ دائم لشرح ما أقوله لأنصاف أميين أحياناً، يفهمون عكس ما أريدُ قولَه غالباً، أو لأغبياء بحق لا أعرف حتّى اللحظة كيف يمكن الحديث معهم: "ينظرون إلى طرف أصبعك كلما أشرت لهم باتجاه القمر!"، مثلما يقول تعبيرٌ صينيٌّ شهير.

كنت أحرص بانتظام أن أترك على صفحات أمَة الرحمن روابط حواراتي مع المفسبكين، للفتِ نظرها، على أمل أن تقرأها، أن تستفزّها، وأن تدخل في حواراتٍ مباشرةٍ معي، لاسيّما أني تعلَّمت دروساً من الحوار مع قطيعها، وطوّرتُ منهجيَّة ردودي عليهم وأساليبها.

لم تدخل أمَة الرحمن مع ذلك يوماً في حوار معي، ولم تعلِّق على تعليقٍ لي في إحدى صفحاتها، أو على رابطٍ تركتُه عليها!

ازدادت شعبيّة صفحتي رويداً رويداً بفضل اهتمام خصومها بها لا غير، وإن اعتبرها البعض صفحة تنويرٍ يوميٍّ "مهذّبٍ لا يوارب"، "لصاحب قضيةٍ مخلصٍ صادق"، حسب تعبيرهم.

ازداد هجوم الظلاميين عليها أيضاً. تمَّ إغلاقها عدّة مرات من إدارة الفيسبوك، بسبب شكاويهم الجماعية، رغم أنها نموذجية في احترام حريّة التعبير والمعتقد والضمير، وفي الحديث المؤدّب دوماً، والذي يحرص على عدم جرح أحد...

رمقتُ أمَة الرحمن ذات يوم تبعث إلى قائمةٍ من فدائييها هاتين الكلمتين: "الرجاء التبليغ عن هذه الصفحة المسيئة لديننا الحنيف وأمِّنا خديجة عليها السلام!".

لاحظت ذلك وأنا أتصفّح قربها جريدةً أو كتاباً (كلّما فتحتْ ماكينتوشها). لم يضايقها يوماً أن تقع نظراتي على شاشتها، في كلِّ الأحوال. لا يربكها ذلك كثيراً ولا تبعد شاشتها عن ناظري إلا في أحيان قليلة جدّاً، وكأنَّها على يقينٍ دينيٍّ من أنني سأنتمي لحزبها، حزب الحقّ والإيمان والخلاص، عاجلاً أم آجلاً!

تفحَّصت لاحقاً الصفحة التي أرادت منعها. لم أرَ فيها مسّاً بأمِّنا خديجة، ولا ما اعتبرته "إساءةً لديننا الحنيف" من قريبٍ أو بعيد!

مرّ، عزيزي سارق الأرواح، ردحٌ طويلٌ من حياتي الفيسبوكية قبل أن أرى تعليقاً لجهاد عبد الحق على منشورٍ صغيرٍ كتبتُه في صفحتي الخاصّة.

فركت يدَيّ سعادةً من فرط انتظار تلك اللحظة، كنت مستعدّاً جدّاً لها (ولعلّها تفرّغتْ لي برغبةٍ مسبقة، ولشيءٍ ما في نفس يعقوب)!

ها هو حوارنا، أسرده لك عزيزي كما دار بالحرف الواحد، دون أيّة فذلكةٍ سرديّة أو تحويرٍ نصّي وإضافات.

منشور حائط صفحتي في الفيسبوك:

تطوَّرت حضارة الغرب الحديثة في كلِّ الاتجاهات بعد أن منع القانون هناك الدِّينَ من التدخُّل في شؤون المدرسة والسياسة والحياة العامة (لكنه يحترم الدِّين كلَّ الاحترام كنشاطٍ روحيٍّ للفرد، مجاله الفضاء الشخصي الخاص فقط).

تعليق جهاد عبد الحق على منشوري:

وضعنا في الدول الإسلامية مختلف عن دول النصارى واليهود. نحن لن نُبعدَ ديننا عن السياسة والتعليم، مهما أراد أعداء الله والإسلام، لأننا وصلنا يوماً بفضله إلى أطراف الصين وجنوب إسبانيا. والعِلم في مجتمعاتنا الإسلامية لم يتطوّر إلا في ظلِّ ديننا فقط.

مشتاق عبد الباري (الردماني)، معلِّقاً:

دينهم أيضاً، عزيزتي الأستاذة جهاد، غزا العالم ويتواجد حتى اليوم من أطراف الأمريكيتين إلى أطراف أستراليا، وفي ظلِّه (عندما كان مهيمناً على حياتهم) تمَّ ابتكار الاختراعات العلمية من التلسكوب إلى الكهرباء، فيما لم نصنع في عزِّ حضارتنا أي اختراعٍ صنعيٍّ ملحوظ عدا تطوير الإسطرلاب الصيني القديم ربما...

ورغم ذلك منعوا دينهم اليوم من التدخل في التعليم والسياسة!

طبعاً نحن أنجبنا فلاسفةً ومفكرين وعظماء كانوا متقدِّمين على العالم بعدَّة قرون كأبي العلاء المعري[1]. لكننا حاربناهم ولم ندرس تراثهم الرائد العظيم حتى اليوم.

جهاد:

لكن الله أعزَّنا نحن فقط بالإسلام، وليس هم!

مشتاق:

باين جداً عزيزتي الأستاذة جهاد!... ألا تلاحظين أننا نتمرّغ في

١ بطل رواية **تقرير الهدهد**، للكاتب، دار الآداب.

قعر البؤس والتخلف، نتقاتل باسم الدين منذ قرون، نهرول بلا توقّف نحو حضيض العالم، ضجيجُ هزائمنا المتتالية يصمُّ الآذان؟

جهاد:
الخطأ ليس في الإسلام، ولكن فينا نحن المسلمين الذين لا نطبّقه!

مشتاق:
بعد هذه القرون من الفشل لا أعرف كيف ستتغير المعادلة أيتها الأستاذة الفاضلة، ولا أدري كيف يمكن استبدالنا بأمّةٍ جديدةٍ أخرى تقيّةٍ صالحة تفهم وتطبِّق ما يريده كهنتنا!
في منظور هؤلاء: الخطأ ليس في خرافاتهم وتعاليمهم ونواميسهم التي بلَّدتْ العقول ولا تواكب العصر، ولكن فينا نحن البلداء العصاة!... ومع ذلك لا ندرس ولا نعرف إلا التاريخ الديني الذي يلقِّنوننا إيّاه، لا نرى الكون والحياة إلا من منظورهم، لا نتعلَّم إلا من مقرّراتهم التعليمية. (شريعتهم قوانينٌ يعاقَب أو يُباد من يخالفها). خطيئتنا بالنسبة لهم جذريّة، كأنّنا خرجنا نحن أيضاً من ضلعٍ أعوج!

(انتهتْ افتتاحيّة مباراة الشطرنج، عزيزي ناهب الأرواح. ستبدأ الحرب الآن!)

جهاد (مقاطعةً مُحاورها بشكلٍ جاف):
أنت لا تستوعب شيئاً، وتستخدمُ كلمات، مثل "الكهنة"، لا محلّ

لها من الإعراب في ديننا الحنيف: قبل "قرون الفشل"، كما تقول، كنّا بإرادة الله في مقدمة العالم بفضل تطبيق تعاليم الإسلام، ونستطيع أن نعود إن شاء عزّ وجل إلى المقدمة بفضل تطبيق تعاليم الإسلام.

مشتاق:

عزيزتي: لعلّنا نشبه، ونحن نتحدَّث عن الزمن الذي كنّا خلاله في مقدِّمة العالم، حيواناً من فصيلة الزواحف لم يستطع مغادرة الكهف (لأنه لا يمتلك أجنحةَ وزعانفَ الحداثة)، لكنه لا يملّ من التذكير بمجده السحيق لديناصورٍ طائرٍ يهيمن اليوم على الأرض والبحر والسماء، قائلاً: "تيرارام! تيرارام! عندما كنتَ زاحفاً تسكن الكهف مثلي، كنت أقوى منك!".

صحيحٌ أننا كنّا بالفعل في مقدمة العالم في العصور الوسطى (الأمويّة والعباسيّة)، ولو توقّف الزمن في تلك الأيّام لكنّا دوماً أسياده.

مشكلتنا الرئيسة: الزمن لا يتوقّف، وعقارب الوقت تلسع من لا يتزامن مع حركة العصر:

مرّت، عزيزتي، عدّة قرونٍ (منذ تلسكوب جاليلو، ثمَّ قرن الأنوار وعصر الحداثة) اختلفت خلالها ماهيّة العقليّة التي تستطيع اليوم أن تسود العصر. فيما لم تتغيّر عقليتنا.

بقينا زواحف كما كنّا، فيما زاحف الغرب، الذي كان أضعف منّا بالفعل، اكتسب زعانف وأجنحة مارد، وسيطر على الكون.

زعانفه وأجنحته: التحرّر من وصاية وسلطة المسلّمات غير العلميّة.

عزيزتي: ثمّة قطيعة بين منهج إنتاج المعارف اليوم ومنهج إنتاجها في الأزمنة الغابرة التي لم نستطع مغادرتها.

أجنحة وزعانف منهج اليوم:

البرهان العلمي الذي لا يأخذ بالاعتبار أيّة مسلمّة غيبيّة؛

التجربة الملموسة؛

الشك والتساؤل الذي لا يعترف بأيّة خطوطٍ دينيّة حمراء؛

الفصل بين التاريخ الديني والتاريخ العلمي، بين المسلّمات الدينية والحقائق العلميّة، وعدم الاعتراف بالأولى (ابتداءً من خلق العالم في ستة أيام، حواء التي خرجت من ضلع أعوج، التفاحة، الطرد من الجنة...) كما لو كانت حقائق علميةً، ولكن مسلّمات دينية. (للعلم الحديث رؤىً وحقائق أخرى معاكسةٌ تماماً لهذه المعتقدات العتيقة).

جهاد (مستفزّة ومنرفِزة جدّاً):

انتبه يا هذا: أنت تطعن في ديننا، في يقيننا، في منهج حياتنا... استغفرْ الله على هذا الشطط والكفر. سأدعو لك بالهداية!

مشتاق:

عفواً عزيزتي الأستاذة جهاد: أتكلّم معك بلغة الرياضيات، وتردّين عليّ بلغة التشكيك والتكفير. أنتظر أن نعود للجدل بالحجج وبالمنطق...

(لم تعلّق... لعلّها حاولت أن تهدّئ نفسها بأعجوبة. تعرفُ بالطبع أن ثمّة آلاف من متابعيها يقرأون وسيقرأون كلَّ حرفٍ من هذا الحوار الذي تهافتتْ على بعض تعليقاتها خلاله مئات "اللايكات" الفيسبوكية من قطيعها والمعجبين بها، فيما لم ينحطّ على أيّ تعليقٍ لي خلاله أكثر من سبعة لايكات فقط، من سبعة علمانيين خجولين، يختفون هم أيضاً وراء هويّات تنكريّة، أسمّيهم: "السبعة الكرام البررة"!

توقّعتُ أنّ جهاد لن تواصل الحوار بعد التعليق الأخير، لكنها عادت بلغةٍ واستراتيجيّةٍ شطرنجيّةٍ هجوميّةٍ شرسة!).

جهاد:

تعلّمْ دينك أوّلاً قبل أن تناقش أيها الغبي! ديننا يقبل الشك والتساؤل. تجهله أنت يا ردماني تماماً، ولا تخجل من النقاش فيه!

خذْ مثلاً قصص النبي إبراهيم عليه السلام وغيرها التي استخدمتْ منهج الشك. على سبيل المثال: عندما كان سيدنا إبراهيم يرى النجوم ويقول: "هذا ربي"، قبل أن يصل إلى الحقيقة واليقين بوجود الله عزّ وجلّ جلاله...

(بدأ يحلو النقاش، عزيزي سارق الأرواح، واحتدمت المباراة. راجت تجارة هؤلاء كما تعرف لأنهم أمّموا التاريخ وصاغوه كما يحبّون. لن يمرّوا!).

مشتاق:

لا نتحدث هنا عن نفس الشك، عزيزتي الأستاذة القديرة جهاد. الشكُّ العلمي شيءٌ آخر. لا يقبل بأية مسلمات غيبية. على سبيل المثال: شخصية سيّدنا إبراهيم نفسه، مثله مثل سيّدنا موسى، ليست شخصيات تاريخية من وجهة نظر العلم، لأنه لا يوجد دليلٌ علميٌّ واحدٌ على تاريخيّتهما، غير ذكرهما في التوراة التي نزلت، حسب التاريخ الديني، أكثر من ١٢ قرناً قبل الميلاد، في جبل سيناء، بالألواح المكتوبة بيد إلهِ بني إسرائيل على النبي موسى مباشرةً...

لكنّ التاريخ العلمي الذي يستخدم تحليلات مخبريّة، بالكربون ١٤، لتاريخيّة الأوراق والحجارة؛ ومناهجَ حديثة لتحليل تاريخ الكلمات وأصول النصوص، يقول (بعد قرنين من الأبحاث العلميّة) إنها (أي: التوراة) أُلِّفتْ من أكثر من ٦٠ كاتباً (أهمُّهم الراهب أسدراس الذي كان على رأس الرهبان اليهود الذين عاشوا في بابل أثناء الهجرة والشتات)، بلغاتٍ مختلفة، انطلاقاً من تراثٍ يهوديٍّ كهنوتيٍّ قديم، وشفطاً من نصوصٍ حضاراتٍ ومعتقداتٍ أخرى سابقة، في فترةٍ تواصلت بين القرن السابع والرابع قبل الميلاد. تمتلئ غالباً بخرافاتٍ لا يعترف بها العلم، كحرب موسى وفرعون وغيرها من القصص الغرائبية التي لا أساس لها من الصحّة.

هل تقبلين بهذا الشكّ العلمي؟

جهاد (بدأتْ تفقد أعصابها وتلجأ إلى مناوشات ما قبل التفجيرات الانتحارية على قطعة ملك الشطرنج):

أوّلاً: هل أنت مؤمن بالله يا من اسم أبيك: عبد الباري؟ اعترفْ أولاً: هل أنت مسلم؟

("واااااو!"؛ دوّى ضاحكاً ساخراً نديمي الحبيب، قابض الأرواح!

- هههههههه!... نعم، تعليقٌ باهرٌ في عمقه الفكري ومستوى حواره الرفيع! نالت، صديقي الغالي، ٩٧١ "لايك" عليه.

لنقلْ: لعلّه آخر زأرات الأسد قبل الهجوم النهائي!).

مشتاق (الذي ألِف هذا الهجوم في حواراته اليوميّة مع قطيعها):

سؤال فلكلوري ينتمي إلى بلاغة القرون الوسطى!... نحن في عصر "حرية الضمير" (أي: حرّية أن تؤمن أو لا تؤمن بدين، وأن تغيّر معتقداتك كما تحب). الاعتقاد أو عدمه يمسّ الفضاء الشخصي الخاص. نحن هنا في الفيسبوك في فضاءٍ عام، نتكلَّم فيه عن قضايا تمسُّ الفضاء العام.

سؤالك، عزيزتي جهاد، يشبه: "ما هي فصيلة دمك؟": سؤالٌ شخصيٌّ بحت لا محلَّ له من الإعراب في الفضاءات المدنيّة العامّة.

جهاد:

ويحكَ يا هذا، لا أملَ فيك. تريدنا أن نشكَّ في عقيدتنا فيما

هي شاملةٌ كاملةٌ ثابتة، منذ قال تعالى: "اليوم أكملتُ لكم دينكم، وأتممتُ عليكم نعمتي".

(وصل النقاش ذروتَه، عزيزي ناهب الأرواح، واقترب أحدنا من "شاه مات"...

لهؤلاء، كما تعرف أكثر مني، علاقةُ عداء جذريٍّ مع مفهوم الزمن. "لو كان الزمن رجلاً لقتلوه". لعلّهم ملقّحون ضده، مثلهم مثل المجانين بيولوجيّاً. هذه إذن فرصتي الكبرى: وضعُ الكتكوتة جهاد وجهاً لوجه مع البعد الرابع، الزمن. أليس كذلك؟).

مشتاق (مقاطعاً، وناسخاً من أحد مقالاته بعض العبارات والأمثلة الجاهزة، ليفتحَ لجهاد ألف جبهةٍ هجوميّة "زمنيّة" على قطعة مَلكها العاري، قبل أن تأخذ زمام الطّعن بالسلاح الأبيض. يشعر أيضاً أنه يقترب من نهاية هذا الحوار الشهير الذي تابعه عددٌ كبير من المفسبكين):

يكمن جذر مأساتنا، عزيزتي الأستاذة جهاد، في تفسيرك للآية بهذه الطريقة. لم نعد نتقدّم، بكلِّ أمانة، بسبب هذا التفسير.

سأشرح نفسي بمثال: موقف الإسلام من العبودية.

الإسلام لم يحرِّمها كما حرّم أكل الخنزير، لكنه حثّ على عتق رقبة العبد.

كان ذلك رائعاً ومتقدِّماً على عصره في القرن السادس ميلادي، قرن الرسول العظيم. لكننا لم نتقدّم أخلاقياً بعد ذلك:

لم يوجد مفكّرٌ أو حاكمٌ أو فقيهٌ طالبَ بتشريعِ إلغاء العبودية في مجتمعاتنا التي ازدهر فيها عدم المساواة وامتلأت بالعبيد والجواري، منذ ذلك الوقت وحتّى ألزَمَنا ميثاقُ حقوق الإنسان، الذي فرضه الغرب في ١٩٤٨ عبر الأمم المتّحدة، بعد أن ألغى العبودية في دياره ابتداءً من القرن الثامن عشر، قرن التنوير!...

لا أظنُّ أن ذلك يمنعك من النوم، أنت الغيورة على دينك. فيما يؤرقني فعلاً أنّه لم يوجد مسلمٌ واحدٌ طالب بإلغاء العبوديّة خلال ١٤ قرناً، بحجّة أن الشريعة اكتملت ولا يلزم تغييرها!

ألاحظ من حوارنا، عزيزتي الفاضلة، أنك ترفضين الاعتراف بأن العالم تغيّر خلال هذه القرون. إليك مثالٌ سيساعدك على استيعاب أهميّة إدراك ذلك:

لو وُجدَتْ "منظمة القاعدة" (بأفكارها ونظرياتها الجهادية وسياستها الحالية، ونظامها الطالباني) قبل ١٤ قرناً، لكانت في قمّة الحضارة الإنسانية حينذاك، ولكان قادتها أشبه بكبار الصحابة أو بعض الخلفاء الراشدين.

لكنها من منظور عصر "حقوق الإنسان" منظمةٌ إرهابية أنجبت نظاماً نموذجيّاً في صناعة الجهل والتخلف والدمار: طالبان. وليس لقادتها موقعٌ في عالمنا اليوم غير موقع القتلة والمجرمين.

جهاد (مقاطعةً، بعد أن فقدت أعصابها أمام هذه العبارات التي سقطت على جمجمتها دفعةً واحدة، كجلمود صخرٍ حطّهُ السيلُ من علِ... شيءٌ طبيعي: مفهوم الزمن لا يدخل في أدمغة السلفيّين،

لا يطيقونه. يخرجون سلاحهم الأبيض عند سماعه):
أنت كافر، ملحد، عدوُّ الله!... ما رأيكم يا شباب؟

مشتاق (استُفزَّ ونرفز بعدما أخرجت سلاحها الثقيل: "عدوُّ الله"، ولجأت إلى قطيعها الفيسبوكي ليدخل على خطٍّ لعبة شطرنجٍ ثنائيّة خالصة، بعبارة: "ما رأيكم يا شباب؟"... قرّر إخراج سلاحٍ يوجعها: الإمام الهمداني):

فعلاً، أنا في عداءٍ يوميٍّ مع إله تنظيم القاعدة والظلاميين والإمام الهمداني!

أما إله الحلاج وابن عربي وأبي العلاء المعري، فأعشقه عشقاً.

أخبريني لو سمحتِ، أيّتها العزيزة جدّاً: عن أيِّ إلهٍ منهما تتحدّثين؟

"ما رأيكم يا شباب؟" التي لجأت إليها جهاد عبد الحق أطلقت من لجامها عشرات الأصوات التكفيرية العنيفة:

تعليقاتٌ وفتاوى متطرِّفة هجمت على صفحتي بعباراتٍ نابية، وبذاءة مقزِّزةٍ أحياناً، قبل أن تغلق إدارة الفيسبوك صفحتي بشكلٍ نهائيٍّ هذه المرّة، وقبل أن أفتح صفحةً جديدةً باسم مستعارٍ جديد...

لو لم أذكر عمداً كبيرهم الذي علّمهم السحر، الشيخ الهمداني، لكانوا ربما أقلّ شراسةً.

ولو لم يكن اسمي، مشتاق عبد الباري (الردماني)، وهميّاً وعرفوا عنواني لتمّ سحلي في وسط الشارع!...

# الفصل الرابع عشر

منشور من حائطي في الفيسبوك:

بين قصائد الحزن على يمنٍ يحتضر، وقصائد الحنين إلى عدنٍ مفقودة، استرعتني تراجيدية قصيدة "الفتى عبد الرحيم" لأحمد علي عبد اللاه الذي يحكي فيها قصّة ذلك الفتى الذي كان ابن المدّ الثوري في عدن، "فنار الاشتراكية العلمية" في سبعينيات وثمانينيات العالم العربي، ثمّ تحوّل تحت المدّ السلفي الظلامي (بعد غزوة ١٩٩٤ التي اجتاحت عدن وحوّلت جنوب اليمن إلى "غنيمة حرب" للقبائل المنتصرة) إلى إنسانٍ آخر: مهووسٍ بمجيء المهدي المنتظر!...

حلم عبد الرحيم ذات يوم (اربطوا أحزمتكم جيّداً!) أن السماء تطلب منه أن يغتال ابنه الأكبر، قبيل صلاة الفجر، ليصير عبد الرحيم بفضل هذه الأضحية الإبراهيمية: المهدي المنتظر!

هكذا، عند أذان فجرٍ دامسٍ لعين، في منتصف تسعينيات جنوب اليمن الصريع، أيقظ عبد الرحيم ابنه الأكبر ليأخذه لصلاة الفجر في المسجد المجاور لبيته، قبل أن يضع في جمجمته، قرب باب المسجد، رصاصةً عمياء!...

لم تتوقّف أصداء نزيف ذلك اليوم التراجيدي عن رجِّ بيوت جيران عبد الرحيم والشوارع المتاخمة لهم، حتّى اللحظة.

السبب: يصحو عبد الرحيم كل يوم، قبيل أذان الفجر مباشرةً، إثر كابوسٍ يداهمه بعنفٍ وضراوة، يصرخ حينها بنداءات باكية مرتعشة (تهزّ أصداؤها الشوارع، قبل أن تختلط بأذان المساجد وتذوب فيها) يناجي بها ابنه الغائب الذي رحل وتوغّل بعيداً في أرض كباش إبراهيم ومعارك المهدي المنتظر.

كل يومٍ يصحو الفتى عبد الرحيم قبل الأذان
ليزلزلَ الأرضَ القريبةَ صوتُهُ
فتضجُّ أصواتُ المآذن حولَه
لا صوت يعلو فوق أصوات الدعاء!...

سقط الطفل الأول للفتى عبد الرحيم هكذا ضحيّةَ توغُّل الأفكار الظلامية في حياة اليمن المعاصر... ثم تقدّم الزمن "في خريفٍ واحد" ليحين موعد سقوط الابن الثاني، وتتضاعف تراجيدية "الشيخ" عبد الرحيم، بشكلٍ جديدٍ لا يقلُّ كارثيّةً:

تمضي سنينٌ في خريف واحد
والأرض تسقطُ شهوةً حمراءَ في زحف الجنود...

يسقط الطفل الثاني لعبد الرحيم هذه المرة ضحية جنود طاغية

اليمن الغاشم وهم يطلقون النار على شباب الحراك السلمي في جنوب اليمن، عند بدء انتفاضتهم الثائرة ضد نظام "الثعبان"، صالح، قبل الربيع العربي بسنين. تسرد القصيدة سقوطه المرّوع بإيقاعٍ "مطرقيٍّ" متسارع:

والأرض جمرٌ من سعار رصاصهم
هذا قتيلٌ آخر
دمُهُ الطريُّ تنالهُ أقدامُهم...
سقط الصبيّ
كلُّ الرصاص هوَتْ عليه...
عبد الرحيم يئنُّ فوق صبيّهِ
حملَ الرُّفاة...

*********

"من لم يمارس العشق السرّي مع سلفيّة، لم يمارس العشق إطلاقاً". آمنتُ، منذ بدء بروفات الفردوس مع أمَة الرحمن، بصحة هذه العبارة التي قرأتها ذات يوم.

شيءٌ عجيبٌ مدهشٌ بالفعل: لكأنَّ السلفية عندما تمارس العشق تنتقم من كلِّ المحرّمات والكبت والحواجز، أو كأنها ملزمةٌ دينيّاً بالفعل بأن تكون، كما قلت سابقاً، بمثابة سبعين حوريّة عينٍ في سريرٍ واحد.

المجد للغرام السلفيّ وشبقه العرمرم!

غير أنّ العشق السرّي مع هذه الشريحة من البشر قد يتحوّل سريعاً إلى مستنقع!

هذا ما حصل لي في كلِّ الأحوال عندما اكتشفت ذات يوم علاقةً موازيةً لأمَة الرحمن، أكبرَ من "مجرَّد علاقةِ محبّةٍ لأبٍ روحي":

شعرتُ بطعنة غادرة في الظهر!...

(أصمت. أتنفّس طويلاً قبل أن أواصل أمام ملاك الموتى سردَ نزيف مراراتي).

- وبعدين؟... يقاطعني صديقي الغالي بصوتٍ حادٍّ وحبِّ استطلاع تلصّصيٍّ جليّ.

(لعلّي أيضاً دوّختُه وأضعت وقته الثمين، قبل دقائق، بالتنظير غير المجدي عن الرسائل الغرامية بين جيني وكارل ماركس).

أستطرد:

لم تخبرني أمَة الرحمن عن ذلك منذ البدء، دفعةً واحدة. انتظرتْ (هذا ما وجدتُ عسراً كليّاً في هضمه) أن أتحوّل ملسوعاً بعشقها حتّى مخّ العظم، مدمناً على مراسيمه، لا أستطيع الحياة دون مخدّراته...

انتظرتْ أن تكون مشروع حياتي الذي أدور في فلكه أوّلاً، وأن يكون من المستحيل توقيف علاقتنا الغرامية ثانياً، لتفجِّر أمامي، وهي تبكي ذات يوم، بعد بضع سنوات من بروفات الفردوس، هذه القنبلة:

- أعيش في الحقيقة حبّين، حبَّك وحبّاً آخر لم أخبرك عنه!

كدت أُصاب بصدمة، أو لعلّي في الحقيقة أُصبت بصدمةٍ لا شفاء منها!

- من هو؟
- الإمام محمد الهمداني!

وجّهتُ، بشكلٍ آليٍّ، سؤالاً أخرق جدّاً، لا يستحقّ الرد:

- أبو زوجك؟
- .......

حاولت استعادة جأشي، تنفّست قدر ما أستطيع، ووجّهت سؤالاً أفضل هذه المرّة:

- مجرّد علاقة محبّة بأبٍ روحيٍّ، قلتِ لي سابقاً؟
- لا، أهمّ من ذلك!

قشعريرة. هاوية بلا قاع... اختنقتْ كلماتي...

ثم قالت بثقة بالنفس وهدوء، كما لو لم تفجِّر جمجمتي بعد:

- لم يعد نداًّ لك الآن! لا يربطني به إلا حبٌّ فقط: لم تعد علاقتي به جسديّة!

الجنّي الأكبر، الإمام محمد الهمداني، يدخل هكذا حياتي من السقف كصاعقة!

فاجأتني، كما لو كانت في نهاية اجتماعٍ حزبيٍّ أو مؤتمرٍ صحفيّ:

- ألديك سؤال، تعليق، ملاحظة؟

بالتأكيد، ألف سؤال وسؤال يتخبّط وسط الدوامّة التي رمتني فيها، المستنقع.

أحتاج وقتاً لاستيعاب ما تقول.

العجلات الزيتية في دماغي تشتغل ببطء، تتوقّف. بدلاً من أن أقول: "اتركي لي الوقت لأصوغ أسئلتي بهدوء"، بقيت متحجّراً.

أردت إنقاذها من ورطة، ربما، إن كانت تشعر يوماً بتناقض أو ورطة: بدت لي، في كلِّ الأحوال، غير سعيدة بالنقاش الطويل حول هذا الموضوع...

وضعت جمجمتي بين راحتي يدَيّ، وقلت:

- لا أعرف، لا!...

استغلَّتْ ذلك سريعاً جدّاً لتغلق الموضوعَ نهائيّاً. قطعتْ عليّ الطريق، وهي تردف:

- عِدني أن تقفل هذا الموضوع بعد اعترافي الآن، وأن لا تذكر اسم الإمام مرّةً ثانية!

(أي: دعْ شعورك بالوقوع في فخ وغيرتك ورفضك يتضخّم ويحتقن في لاوعيك بصمت، حتّى تصاب بسكتة قلبيّة مفاجئة، أو يعلو ضغط دمك حتّى تتشقّق شرايينك، أو يتفجّر احتباس مشاعرك وكبتُك تسوناميات جنون، أو ترمي بنفسك، بكلٍّ بساطة، من الدور التسعين لأقرب عمارة...).

- أعدِك!...

وقعت إذن في سجنٍ لم أعرف كيف أخرج منه. مطبٌّ مغلق!

لم يكن هذا الاسم أليفاً نظيفاً بالطبع: أبو زوجها الذي اختارها للزواج بابنه (لسببٍ يبدو نبيلاً ونقيّاً جدّاً في الظاهر)، والذي يكبرها بثلاثين عاماً، والذي له هيئةٌ قبيحةٌ مخيفةٌ تتوحّد في مقتها أذواق الملائكة والشياطين...

أخطبوطٌ ظلاميٌّ له علاقةٌ غامضةٌ أكيدةٌ وقديمة بإرهاب القاعدة. أشرطة خطاباته الدينية شديدة الشعبية في الأوساط الإسلامية عموماً،

والجزائرية على وجه الخصوص. أحد قتلة نجاة غير المباشرين، أو المباشرين (مِن يدري؟)!

انصبَّ كلُّ حنقي عليه وتضاعف. رثيت لحالِ ابنه الإمام الصغير الذي أعرف كم تكرهه أمَة الرحمن، وأثق أنها ترفضه منذ زمن، ولن تقترب منه أبداً. (له زوجاتٌ أخريات، وأطفالٌ منهنّ كثيرون).

أعترف عزيزي قابض الأرواح:

يخطر لي في بعض لحظات هلوساتي الحزينة المضحكة أن أتوجّه نحو الإمام عمر للبكاء أمامه والشكوى له من أبيه قائلاً: "زوجتك تخونني مع أبيك!"...

لم أتوقّف عن التفكير في غريمي ليل نهار. لا أستطيع الحديث مع أمَة الرحمن عن علاقتها الغرامية به، بسبب الوعد، ولأني أشعر أن ذلك يضايقها بالفعل.

تتصلّب أجفانها (ترتجف قليلاً) عندما تنثال تساؤلاتي التلميحيّة عن جديد هذه العلاقة الغرامية الموازية. تهاجمني حينها:

– قلت لك كل شيء، ألا يكفي؟ ألم تعدني بعدم فتح هذا الموضوع؟ أتشعر ببهجةٍ ماكرة عند فتحه؟...

قاطعني صديقي قابض الأرواح الذي تجذبه كثيراً، كما لاحظت، غوايات اللغة ولعبة الكلمات:

– "بهجة ماكرة!" واااااو!

نعم، عزيزي، ما أجمل هاتين الكلمتين اللادغتين، الهجوميّتين، الرادعتين (وإن توغّلتا في ألياف العصبيّة كأمواس حلاقة)!

بعد فترةٍ طويلة، تجرّأت بتوجيه نفس السؤال آملاً أن تكون

علاقتهما الغرامية قد انتهت، وصارت مجرّد "علاقةٍ إنسانية":

– أما زلتِ تحبِّينه؟

كان ردُّها صفعةً تاريخية لي. قالت بغضب:

– نعم، هو حبٌّ أبديّ. أنا منقادةٌ لحبِّه حتّى العظم!... لكن، اطمئن، لم تعد بينه وبيني علاقة جسديّة البتّة منذ أن أصبحنا نلتقي، أنت وأنا، في الشقّة (إذا كان هذا ما يهمُّك!).

– وهو، يحبِّك؟

– أنا غرّةُ معشوقاته؛ سيّدتهم الأولى. يفتتح صباح كل يوم وينهي مساءه بهذه العبارة التي تصلني ثلاث مرّات متتالية: "أحبّكِ لله وفي الله ولا أحبّ غيرك، عشقي الأوحد، قلبي وقالبي، أمَة الرحمن!".

– ألا تنوين إيقاف علاقتكِ به، لأني معشوقكِ الأوحد، كما تقولين؟

صمتٌ رهيب، قبل أن تضيف هذه العبارة التي لم تدمّرني في حياتي عبارةٌ مثلها: "ماذا أعمل؟ لم يرضَ!" (أو: "إيش أسوّي؟ مارضاش!"، كما تقولها بلهجتها الأصيلة!) لدرجة أني كنت أريد أن تكون عنوان هذه الرواية التي أسردها لنديمي الحبيب هادم الملذّات ومفرِّق الجماعات.

حككت شعري طويلاً، ثمّ سألت:

– بِمَ تردّين عندما يقول لك عبارته الغرامية ثلاث مرات؟

ردّتْ (هي التي طالما كرَّرت أمامي أنني معشوقها الأوحد منذ أن خفق في قلبها عرق العشق!):

– "وأنت كذلك عشقي الأوحد حفظك الله ورعاك"، أردِّدها

ثلاث مرّات أيضاً!

كنت أظنُّ قبل ذلك أنّ لعنة الله على الكاذبين!

رأت فكّي يرتعش وجفوني تتخبّط. أضافت:

– هي صيغٌ فلكلوريّة قديمة نستمرُّ بقولها كالعادة، وإن لم يعد ندّاً لك الآن، كما شرحت لك ألف مرّة!

لاحظتْ أنّ كلّ ألوان قوس قزح عبرت وجهي دفعةً واحدة، وأنّ عينيّ احمرّتا كما لو كانتا ستنفجران دماً.

حاولتْ طمأنتي:

– دعاني أخيراً للانفراد به مثلما كنّا سابقاً... لكنّي تهرّبت، لم أذهب!...

يا له من تطمين، زاد هلعي وتقزّزي من غريمي المرعب، "طَبيني" إذا جاز استخدام "طبين" كمذكّرٍ للكلمة اليمنيّة المحليّة: "طبينة" (أي: الزوجة الثانية)!

مستنقعٌ حقيقي هذا الذي أغرق فيه ولا أستطيع عمل شيء للخروج منه!

ثمّ كرّرت تهديدها لي بأن لا أذكر اسمه مرّةً أخرى، وأن لا أوجّه سؤالاً حوله، وإلاّ...

تعوّدت، صديقي ناهب الأرواح، على ديكتاتوريّة هذا التهديد منذ أن جاءت أمَة الرحمن إلى صالة استقبال الفندق، تبحث عنّي في صيف ١٩٩٦.

لم أكمل لك، عزيزي، ما دار حينها. انفجر بيغ بانغ غريب مفاجئ. ها هو:

قلت لها، بعد احتدام جدلنا حول "الشرّع حلّل أربع!" وبقيّة شعارات تلك المسيرة:

- اعذريني عزيزتي أمَة الرحمن: أجد صعوبةً حقيقيّةً في الحديث مع وجهٍ لا أراه!

بعد ثانيتين فقط، لم تتردّد عن نزع النقاب عن وجهها في الفندق، وإن ظلَّ شعر رأسها مغطّىً تماماً...

المفاجأة الأكبر هو أن هذه الفتاة، التي تتكلّم معي بلهجةٍ صنعانية صافية، لها كثيرٌ من قسمات صبيّة "دكان الأعمى"!...

كلما تمعَّنت فيها أكثر ازددت ذهولاً من تشابه قسماتهما.

لاحظتُ أن ارتباكها لا يقلُّ عن ارتباكي.

صمتٌ طويل، هرولةٌ مشتركةٌ في "ثقبٍ أسود"...

ثم صمتٌ لم ينتهِ، قبل أن تبدِّده قائلةً:

- كم ستبقى في صنعاء؟

رجّةٌ كهربائية: تغيّرَ صوتها!... لم تلفظ كلمة "ستبقى" بتجييم القاف كما هو حال اللهجة الصنعانية، شديدة البعد عن اللهجة العدَنيّة. أي: "ستبجى". بل لفظتها بلهجةٍ عدنيّةٍ نقيّةٍ فصيحة لم تمارسها ربّما منذ هروبها من عدن قبل حوالَي عشر سنوات!...

ذهولٌ وتلعثم، قبل أن أسألها:

- أأنتِ فاتنُ دكان سيف العريقي؟

- عِدني أن لا تذكر هذا الاسم الفاسق مرّةً أخرى، وأن لا تعود لحظةً واحدة للحديث عن حياتي السابقة في عدن!

دوّامة دهشات. تلعثمتُ من جديد. عدتُ صبيّاً أبكم، بنفس

صمتِ "دكان الأعمى"، أمامها، بنفس الضعف وعدم المقدرة على امتلاك موضوعِ حديثٍ أو زمام مبادرة...

ثمّ غادرني هذا السؤال، منتفضاً بلا وعي، متطايراً يصعب التقاط أو ترتيب كلماته:

– مش معقول، لا أصدِّق! لديّ ألف سؤال حول طقوس لقاءاتنا الصامتة في دكّان الأعمى!... ثمّ لا أستوعب شيئاً، ذلك يشبه المستحيل: كيف تحوّلتِ سلفيّةً، أنتِ، ابنة سوسلوف؟ لماذا صار اسمك أمَة الرحمن؟

– أكرِّر للمرّة الأخيرة (قالت وهي تستعدُّ لهجري بشكلٍ جافٍّ حاسم): عِدني أن لا تذكر هذه الأسماء مرّةً أخرى، وأن لا تعودَ لحظةً واحدة للحديث عن حياتي السابقة في عدن!

– أعدك!

يرنُّ جهازٌ لاسلكيٌّ صغير في حقيبتها اليدوية، مثل أجهزة الشرطة! لغزٌ آخر: كيف لها أن تحمل جهازاً كهذا؟!

لعله صوتٌ سألها: "أين أنتِ؟ إلى أيِّ شارعٍ يلزم أن تتَّجه المسيرة الآن؟"، لأنها ردّت بكذبٍ واضحٍ للعين المجرّدة، لم تقل إنّها في مكتب استقبال فندق! (كنت أظنّ أن الله لا يحب الكاذبين!):

– أنا في مؤخرة المسيرة! لندخلْ شارع الزبيري الآن، صوب شارع التحرير بعد ذلك!

ثم غادرت الفندق لتتّجه فعلاً نحو رأس هذه المسيرة السوداء التي ترفض أن تنتهي...

لم يعد حينها مركزَ ذهولي ذلك السيلُ الأسود من طيور الظلام

التي تزعق وتنعق شعارات ظلاميّةً متطرِّفة، ولكن: هاوية!

قبل مغادرتها، سألتها:

- أتذكّر أنّ شعركِ كان في غاية الجمال في حياتنا السابقة في دكّان الأعمى. لماذا تخفينه عن الناس وراء هذا المنديل الخانق؟

- آه، كدت أنسى أن أضع النقاب من جديد، يا للكارثة!

وضعتْه، وخسفَتْ...

صعدتُ غرفتي بعجل. فتّشتُ عن غطاء العينين الذي لا أستخدمه إلا نادراً جدّاً، في لحظاتٍ أبحث فيها عن صمتٍ أعمى، عن موتٍ كليٍّ مؤقت.

استلقيت على سرير الفندق، خائر القوى. أغلقت عينيّ بالغطاء الحالك السواد. غرقتُ في مهرجانِ ظلام دامس...

الوجه الإلهي الذي كان يواجهني ساعاتٍ طوال في دكان الأعمى، الوجه الذي كان يملأ سماء ليالي منامي في عدن قبل السفر إلى فرنسا، يتوهّج أمامي الآن، يثقب العتمة.

لعلّه أكثر نضارةً وجمالاً وسحراً مما كان عليه في الطفولة!...

هرولتْ حياتي منذ تلك اللحظات، عزيزي الغالي عزرائيل، في هاويةٍ بلا قاع.

# الفصل الخامس عشر

تمرُّ الأشهر بعد ذلك اللقاء المفصلي في صالة الفندق، على تخوم تلك المسيرة السوداء التي تجثم عليّ ككابوس، دون أن أستطيع اختراق المناطق المظلمة في حياة من منعتْني بشكلٍ قاطع، ومنذ أوّل لقاء، عن الحديث عن ماضيها في عدن، أو عن حياتها اليوميّة في صنعاء في مجمع قصور الغُورُو.

ومع ذلك كنت أتحوّل حال رؤيتها، بلا وعي، ماكينة أسئلة:

– صحيحٌ أنّ من يقتل "الكفار" بتفجيراتٍ يتركها في سلّة قمامة بمحطّة مترو، دون أن "يستشهد" في نفس العمليّة، له نفس أجر من "يستشهد"؟؛ أسأل هاوية.

– الأعمال بالنيّات. من نيّته الجهاد في سبيل الله له الأجر، استشهد أم لا!

– له ٧٠ حوريّة عِينٍ في الجنة؟

– لم أسمع بهذه الفتوى!

– ما رأيكِ بها؟

– ليس لي رأي. هذا مجال اختصاص الأئمّة فقط. أنا أتبع أئمتي

وأطيع أمرائي!

– أمراؤك؟

– من يقودون الجهاد لنشر كلمة الله.

– أحبّكِ موت قلبي!

– وأنا أكثر بكثير!

نثرثر ونثرثر. نعوِّض بمفعولٍ رجعي كلَّ صمت تمثالَي "دكّان الأعمى". نعوِّض كلَّ رغباتهما الدفينة السريّة الممنوعة...

كلّ ما استطعت اصطياده ذات يوم: حلقةٌ مفصليّةٌ صغيرة من بعض أسرار حياتها، سمعتها من ابتهال، زوجة صديقٍ لي يقيم في بريطانيا.

كانت ابتهال مع هاوية في نفس المدرسة الثانوية في عدن. عاشت في صنعاء بعد الوحدة اليمنية في ١٩٩٠، والتقت هناك صديقتها القديمة هاوية في بعض مجالس القات النسوية، لاسيّما في بيوت كبار بنات الشيوخ القبليين أو الدينيين الذين لا يرفض دعواتهن أحد.

عندما مرّت ابتهال وزوجها في فرنسا، في خريف ١٩٩٨، دعوتهما إلى مطعم باريسي. هرولتْ نقاشاتنا كالعادة نحو ماضينا المشترك في عدنِ السبعينيات والثمانينيات، عدنِ الاشتراكية العلمية.

يوميّاتُ تلك الفترة لغزُ الألغاز. من فرط سيرياليّتها وغياب الدراسات حولها والإضاءات عليها، تجعل كلَّ من عاشها يَلتُّ ويعجن فيها دون توقّف ودون نتيجة، كأنّه يطارد فئرانَ في غرفةٍ مظلمة!...

بعد أن قصَّتْ لنا ابتهال كيف اُغتيل والدها (الذي كان من رفاق سوسلوف) في حرب ١٩٨٦، حكيتُ لها قصّة هذا المعتوه الذي

رفض مصافحة نجاة لأنه متوضّئ!... ثمّ وجّهت لها سؤالاً عن ابنة سوسلوف، فاتن.

- أراها في صنعاء بين الحين والحين!؛ قالت.

- ربما أنت الوحيدة التي تستطيعين أن تشرحي لي كيف هربتْ من عدن إلى صنعاء قبل الوحدة؟

- صار النظام في الجنوب، كما تعرف، مشروخاً مهشَّماً بعد حرب ٨٦. ازدادت حدّة رغبة السلفيين (لاسيّما قائدهم الإمام الهمداني وشبكاته، ومعه الشيخ أسامة بن لادن ذو الأصول الحضرمية هو نفسه) بتعجيل الانقضاض عليه.

كان ذلك أقدس أهدافهم جميعاً. كيف لهم أن يذهبوا لتحرير أفغانستان من السوفييت، والسوفييت في عقر دارهم، في جنوب اليمن، بلاد "الإيمان والحكمة"، شرق الكعبة؟

بل في دوعَن نفسها، مسقط رأس من هاجر إلى السعوديّة وبدأ فيها حياته حمّالاً وأنهاها ميليارديراً: محمد بن عوض بن لادن، ذو الاثنين وخمسين ولداً وبنتاً. أشهرهم الولد رقم ١٧ الذي قال عبارته الشهيرة: "لا نجوتُ إن نجا الحزب الاشتراكي اليمني"، مؤسس تنظيم القاعدة الجهادي، الشيخ أسامة الذي كان مشروعُ حياته بكلِّ بساطة أن يدخلَ التاريخ مثل نموذجه الأوحد في الحياة: حسن الصبّاح!

إحدى بنات الإمام الهمداني ناشطةٌ سلفيّةٌ فظيعة، "إمامةٌ" صغيرة، لو جاز استخدام هذه المفردة. سمعتْ (في جلسات القات النسائيّة بصنعاء، بعد حرب ١٩٨٦) ما تعانيه فاتن من أزمات نفسيّة وضعف،

جراء إهمال أبويها لها وانشغالهما بحروبهما الأهليّة.

كلّفتْ للقائها إحدى السلفيّات العدنيّات الطازجات (اللواتي تكاثرنَ في عدن بعد وجرّاء حرب ١٩٨٦) ذوات الخطاب الفعّال المؤثر.

عملت السلفية لهاوية غسيل دماغ جذريّاً ناجحاً فسّر لها، ببساطةٍ دينيّةٍ باهرة، سبب كارثة حياتها: عدمُ طاعة والديها الله ورسولَه.

علامات غضب الله على والديها (وعلى كلِّ الشيوعية في جنوب اليمن): حرب يناير ١٩٨٦، تمزُّقهما العائلي الفضائحي، وتمزّق دولة اليمن الديمقراطية في نفس الوقت.

ثم رسمت لها خارطة الطريق بكلماتٍ أبسط: اللجوء إلى بيت عالم زمانه، شيخ الله الصالح، الإمام محمد الهمداني، الهادي إلى الصراط المستقيم، والذي تنفتح على مصاريعها لدعواته أبواب السماوات السبع!...

استرسلتْ ابتهال:

- رتّبت السلفية تفاصيل كل ذلك مع ابنة الإمام نفسه. نجح كلُّ شيءٍ كما يلزم: وصلت فاتن بسريّة مطلقة إلى مجمّع القصور العائلية للإمام في صنعاء، هرباً عبر القرى المتناثرة في تخوم الحدود الجنوبية الشمالية المغلقة:

ابنة سوسلوف متطوِّعةٌ في بيت زعيم الظلاميين ومُلهم الجهاديين العرب، من سيصدِّق ذلك؟!

يومها انتصرت السلفية في اليمن بشكلٍ استعراضيٍّ نهائيٍّ على الماركسية اللينينية التي كانت تترنّح وتحتضر في الأساس بعد

تراجيديا حرب يناير ١٩٨٦!...

ارتشفت ابتهال كأساً من الماء، وفي عينيها مرارة المهزومين. أشعلتْ سيجارة، فيما قلت لنفسي:

"يومها شرب بن لادن نخباً من العسل الدوعنيِّ الأرستقراطيِّ اللذيذ الباهظ الثمن (كافيار اليمن)، الذي تنفرد به منطقةٌ واحدةٌ ووحيدة في العالم: وادي دَوعَن!".

تسترسل ابتهال:

- أسبوعٌ من غسيل دماغٍ "إكسترا" فعّال في بيت الإمام وفي قلب مجمّعه (تمرّستْ عليه هيئة أركانه):

في مقدمة البرنامج: الإصغاء الدائم إلى أشرطة محاضرات الإمام شديدة الانتشار في الأوساط السلفيّة، لاسيّما في الجزائر هذه الأيام، وإلى أشرطة الشيخ بن لادن نفسه "الذي ضحّى بملياراته من أجل دولة الخلافة والإسلام"، والذي يعتبِر الإمامَ الهمداني أباه الروحي...

خرجت فاتن بعد هذا الأسبوع "التنويري" فاتنَ أخرى، بدماغٍ بيولوجيٍّ لإنسانٍ آخر، تعيش في تنويمٍ مغناطيسيٍّ مستديم. هذا ما أنا متأكِّدةٌ منه.

هاويةٌ حقيقية!

ثم أضافت:

- سرّبت هيئة أركان الإمام حينها دعايةً في الأوساط الفقيرة التي يتفاقم فيه الانتشار السلفيّ، مفادها أن بنت كبير الكفّار الشيوعيين هربت من عدن لتلجأ إلى بيت الإمام في صنعاء، لأن أباها الفاجر كان يغتصبها، بمعرفة أمّها الفاجرة (التي كانت تقول لها: "هو أبوك،

اسمعي كلامه!")... لكن الإمام الهمداني، حجّة زمانه وسيّد علماء المسلمين، أنقذها واهتمّ بها بنفسه. أخرجها من الظلمات إلى النور، "طهَّرها" وحوّلها وليّةً صالحة!

وبفضل سماحته ونجاح هدايته، زوّجها لابنه المفضّل وولي عهده: الإمام الصغير عمر رضي الله عنه!

تنهّدت ابتهال طويلاً، ثمّ قالت:

– في كلِّ الأحوال، هي اليوم امرأةٌ أخرى، غيّرت اسمها ولهجتها... لا يعرف أحدٌ تقريباً كلّ ذلك!

شكراً ابتهال!

صرت منذ بدء علاقتي بهاوية، وبعد أن لاحظت طريقتها في الحديث عن الإمام الهمداني وتغيّر ملامحها حال توجيه استفسارٍ يمسّه، واثقاً أكثر فأكثر أن علاقتهما ليست نقيَّة. رسمت لها حينها في دماغي ألف سيناريو، منطلقاً من حديثي مع صديقتها القديمة ابتهال عندما عبرتْ فرنسا مع زوجها، أبرزها:

بعد وصول هاوية قصر الشيخ سقط في غرامها مثل كلِّ مفترس وحشيٍّ يعتقد أنها وصلته هديّةً ربانيّةً مباركة: سبيّةٌ طوعيّةٌ سخَّرها الله له في حربه ضدّ الشيوعيّة، "جهاديّةُ نكاح"، بكلِّ بساطة!

بعد غسيلِ دماغٍ دينيٍّ دام أسبوعاً بالكثير (عُمْرُ خبرته فيه أكثر من عشرة قرون)، أوقعها في شبكته كمنقذها اللدنيّ، مُخرِج حياتها من الظلمات إلى نور الحقِّ والإيمان، الهادي الذي يلزمها طاعته العمياء لأنّ "ما يريده الشيخ يريده الله"!

لعله أسقطها في حبّه بطريقةٍ لن أستوعبها يوماً، ولا جهابذة خبراء

علوم الطبيعة الإنسانيّة أيضاً.

لكني أثق أن عبارتها "إيش أسوّي؟ مارضاش!" عبارةُ جاريةٍ لسيّد؛ عبارةُ أسيرةٍ حتّى النخاع؛ عبارةُ من اغتصبها أبٌ منتهكُ محارمٍ، وغذّى فيها منذ طفولتها روح الخوف منه والطاعة المطلقة...

لماذا لم يتزوجها؟

أعرف أن له أربع زوجات، وأطفالاً من كل واحدة، وربما جَواريَ: دين الإسلام الحنيف لم يحرِّم العبيد والجواري. لم تلغِه إلا القوانين الدوليّة مؤخَّراً جدّاً. والإمامُ سلفيٌّ أرثوذكسيٌّ يكره ويرفض هذه القوانين الدوليّة التي تتعارض مع منهج حياة دولة الخلافة الإسلامية في صورتها "التي تركها السلف الصالح أمانةً في أعناقنا"، كما يردِّد غالباً...

كان بإمكانه بكل سهولة، رغم كل ذلك، تطليق إحداهن للزواج بهاوية. لكنه لم يفعل!

ربما لأنه يحبُّها حقّاً، ولا يقارنها بممتلكاته السائبة من زوجاتٍ وجوارٍ.

لعله معها، ومعها فقط، يواصل حياته الحقيقية الأصيلة عندما كان طالباً دونجواناً في بيروت، يميل لصفِّ شعره كألفيس بريسلي، قبل فشله مرّتين في العام الأوّل من دراسة الطب.

كان ذلك الفشل صدمته الجذرية ومنعطف حياته. عرف بفضله أن الدراسة، الكدح، السهر للتحصيل العلمي، الحياة المدنيّة بـ"فوشة"[1] شَعر إلفيس بريسلي ليست سوقه الرابحة.

---

١ تسريحةٌ في غرّة الشَّعر أعلى الجبين، مثل نتوءٍ يشبه الموزة.

هو خطيبٌ بليغٌ مؤثِّر، يجيد التمويه وغسل الأدمغة. لا غير.

لا غير.

ويلزم على المحارب أن يهاجم مستنداً على نقاط قوَّته ويضحّي بنقاط ضعفه، حسب قوانين العبقري الأول، الجنرال الصينيّ سان تزو، في كتابه الشهير الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد: **فن الحرب!...**

عاد إلى اليمن من بيروت بعد أن ارتبط بدوائر سلفيّة وإرهابيّة أُعجبت به واختارت أن يكون مفتاح تغلغلها في اليمن، "بلاد الإيمان والحكمة".

ما إن وصل صنعاء حتّى طلب أن يكون أستاذاً في "كليّة الشريعة والقانون"، رغم أنه لا يمتلك شهادةً جامعيّة!

عميد هذه الكليّة أستاذٌ مدنيٌّ قديرٌ تسلّل من عدن بعد أن سيطرت عليها عصابات "عنف بالعنف".

في البدء رُفض الطلب. لعلّه نسي تماماً أنه مدنيٌّ ضعيفٌ هاربٌ إلى مدينة وحوش قبليّة ضارية، ستبتلعه في دقائق!

استسلم سريعاً لأوامر رئيس جامعة صنعاء، ولضغط قبليٍّ وسياسيٍّ وتهديدٍ متواصل له، لاسيّما أنه لاحظ تواطؤَ صمتِ النخبِ ونفاقَها المريعً. أدرك، في كلِّ الأحوال، أن الإمام والنخب جميعهم بيادق في إبطِ رئيس مافيا الدولة يحرِّكهم بلعبة المصالح كيفما يشاء...

بعد أشهر من التعيين، لاحظ رئيس الكليّة أن الأستاذ الجديد يقضي وقته يغسل أدمغة طلبةٍ صغار في الكلية يختارهم بعناية، يحدِّثهم حول "الغرب الفاجرً الذي يعلّم الأطفال ممارسة الجنس

في المدرسة الابتدائية العلمانيّة، ويريد منّا في بلاد الإيمان والحكمة أن نكون مثله" وحول ضرورة العودة "إلى دولة الخلافة الإسلاميّة والحقّ التي تركها السلف الصالح أمانةً في أعناقنا".

"أمانةً في أعناقنا"، يقولها بصوتٍ مجلجلٍ ممطوطٍ رخيم يثير إعجاب الجميع، بمن فيهم أنا، عزيزي الغالي عزرائيل!

(أرمق ظلال ابتسامةٍ ملائكيّةٍ خفيفةٍ جذّابة على ثغر عزيزي الغالي!).

يجنِّدهم بمختلف الوسائل والدعم المالي ليكونوا حاملي أشرطة خطاباته للملأ، فدائييه المسبِّحين بحمده، والمكرِّسين كلّ وقتهم لحفظ وترديد ما يقول.

"رضعتُ الإيمان بالإمام محمد الهمداني مع حليب أمّي. سأقتل من يتطاول ويقول عليه كلمةً واحدةً لا ترضيني"، كتب ذات يوم أحد المجاهدين من جيل "عشّاق النكاح بحورِ العِين" الذي صنعته وربّته كتب ومناهج ومحاضرات الإمام وشبكاته!

استدعاه عميد الكليّة في يوم يشبه يومَ استيلاء حسن الصبّاح على "قلعة ألَموت" في نهاية القرن الحادي عشر.

قال له:

– يا عزيزي، طلاّبنا صغار السنّ، جاؤوا للتحصيل العلمي وليس للعمل الحزبي والتجنيد السياسي. ما تقول يضرّهم ويسيء إلى سمعة الكلية!

– أمامك خياران، وخمس دقائق!؛ ردّ الإمام الهمداني.

– عفواً؟

- إما أن تعتزل وتفوّضني بالمكتوب الآن لإدارة الكليّة، أو أن أفتيَ الأربعين الذين ينتظرون خارج الباب أنك شيوعيٌّ كافر تريد تحويلنا إلى دولةٍ شيوعية كجارتنا التي جئتَ منها لتعرقل، في أرضنا الطاهرة، كلمة الله من الانتشار وسط جنوده!...

نظر رئيس الكلية من نافذة مكتبه ليرى حول الباب أربعين مجذوباً، بأربعين "جنبيَة"[1] رهن الإشارة، ينتظرون نتائج هذا الاجتماع!...

غادر مكتبه من بابٍ صغير بعد خمس دقائق، وبعد أسبوعٍ فقط هرب وعائلته إلى إحدى دول الخليج، وتوفّي هناك...

لم يكتفِ الإمام برئاسة كلية الشريعة، ووضع المناهج التدريسية الظلامية لعموم طلاب مدارس الجمهورية العربية اليمنية، بل ظلّ فشله المتكرِّر في كليّة الطب ببيروت عقدة حياته.

يلزمه أن يسمع الناس تناديه يوميّاً "ابن سينا العصر"، كي يخفّف قليلاً من وطأة عقدته الجذريّة.

لجأ إلى الشعوذة واخترع "عقاقير العلاج بالإعجاز القرآني" لعلاج معظم الأمراض التي لم يستطع الطب الحديث معالجتها، بما فيها السرطان!

مثل أيّة وزارة في الأرض، رفضت وزارة الصحّة بصنعاء إعطاء هذا المنتحل ترخيصاً طبيّاً. إذ يستحيل، بكلِّ بساطة، السماح الرسميّ لاستخدام هذه العقاقير، لأنها ليست طبيّة.

لجأ كعادته إلى التكفير، ليحصل على الترخيص:

اتّصل بمسؤول الترخيصات في الوزارة قائلاً بهدوء:

---

١ خنجر صنعانيّ مربوط بحزام.

- أمامك ربع ساعة فقط لبعث الترخيص، أو سأعلن للملأ أنك كافر بالله، لا تؤمن بالطبِّ المحمدي وبالإعجاز الإلهي في القرآن، كلام الله!

لم تتوقّف دوائر الإمام الإعلامية عن الحديث عن نتائج علاجات الإعجاز القرآني لـ"ابن سينا العصر" التي تفوق نتائج الطب الحديث.

ولم تتوقّف مستشفيات الدول المجاورة لليمن عن الحديث عن وصول مرضاه (أو: "كباش فداء عقاقيره"، كما يسمّونهم) شبه موتى إليها!...

تعجبني كثيراً صورة الإمام الهمداني، عندما كان بطلعة ألفيس بريسلي، التي نشرها في الفيسبوك صديقٌ قديمٌ له في بيروت، أثار بها دهشة الجميع!

كان بإمكانه أن يكون ممثِّلاً مرموقاً، أن يلعب دور عبد الحليم حافظ في "أبي فوق الشجرة"، أو بالأحرى دور إيلاي والاك في الفيلم الألماني الإسباني الإيطالي الشهير "الطيب والشرس والقبيح" (١٩٦٦)، لأنه لا يمتلك من قريبٍ أو بعيدٍ عذوبة طلعة العندليب الأسمر وبراءة محياه!

تغطّي صور غُورُو "بلاد الإيمان والحكمة" اليوم، لسوء الحظِّ، طبقاتٌ من الجلود الجديدة، والابتسامات الاصطناعية المجذوبة، والنظرات التأمليّة المدوِّخة التي تثقب السماوات الستّ، واللحى وأصباغ الحنّاء وتجاعيد الزمن، و"زبيبة" داكنة مفروشة على الجبين بدلاً من "فوشةِ" حياته البيروتيّة، وكتلةٌ هائلةٌ من المعاطف القذافيّة، والأردفة الملوَّنة، والعمائم الدينية الثقيلة...

غير أن تزويجه ابنَه بهاوية، واستمرار علاقته الغرامية معها في الخفاء، بدت لي غايةً في القذارة المفرطة والدناءة التي تتجاوز كلَّ الحدود. لعلّه يحتقر ابنه بشكل يفوق كلَّ ما يخطر في بال!

ابنه، أرثيه بحقّ. أعرف عنه الكثير. تزوّجتْه هاوية طاعةً لأبيه لا غير. لكنها تحتقره بضراوة منذ أوّل يوم رأته...

منذ أن لاحظتْ يوم ليلة عرسهما أنه قبل الاختلاء بها ذهب أوّلاً ليصلّي ركعتين، لكنه عاد برائحةٍ بغيضةٍ لا تغادر خياشيمها حتّى اليوم، مخموراً جداً. عاد ليغتصبها في الحقيقة. "وحشٌ مجنونٌ هائج"، كما قالت. صراخها ساعة غزوته لجسدها، وتلذّذه بنزيفه، يصمُّ أذنيها إلى اليوم، لن يفارقها مدى الحياة.

لم تتوقّف منذ تلك الليلة الليلاء الدامية عن كراهيته "بحقدٍ وضراوة"، حسب تعبيرها الداكن الأثير.

ثمّ اعتبرت هاوية أخيراً ساعات سكره اليومي نعمةً من السماء، لأنها تتحرّر منه تماماً خلالها. تعود غالباً في المساء وهو نائم كميّت حتّى موعد الصلاة. تواصل حياتها وعشقها السرّي الغريب مع أبيه الطاغوت، الذي تنقاد له بلا وعي، وبعشقٍ ميتافيزيقيٍّ مغناطيسيٍّ غامض...

حالما أعود إلى باريس يتحوّل الشيخ محمد الهمداني كابوسي اليومي، هوسي الأكبر. لا أعرف كيف أُخرج هاوية (وأنا أيضاً) من براثنه.

كلّما أتذكّر اسمه (يعني معظم الوقت) تتصلّب شراييني فجأةً،

يرتفع الضغط في شعيراتي الدمويّة، يتثلّج نخاعي الشوكي، يغلي دماغي، وأشعر أن قرحةً ما ستتفجّر في مركزه.

حلمي اليومي: أن أجذبها للحياة معي هنا، في باريس. أن أطوف العالم معها (من سيدني إلى سانتياجو)، وهي بدون نقاب أو حجاب، بساعدين طليقين، وبفساتين خفيفة حرّة تضيء بها وتشعشع، ليسيل جمالها ورشاقتها ورقّة بشرتها الطليقة في كلِّ شوارع الكرة الأرضية.

كنت متأكِّداً أن يوم مغادرتها المستنقع ووصولها للحياة معي سيأتي قريباً، لا محالة.

اقتنيت لها بانتظاره فستاناً أحمر أرجوانياً خفيفاً، طليق الساعدين، من حرير البروكار الخالص، ثميناً جدّاً. كنت متأكداً أنه سيتناغم ويسيل على جسدها الرشيق العبقري، بشكل ساحر.

لم أتخيّلها معي في باريس إلا به. ألمسه كلَّ يوم، ألمسها فيه لأنه بنعومة بشرتها الأسيلة الساحرة.

ثمَّ اقتنيتُ فستاناً من الموسلين بلون الياقوت، مزيّناً بأزهار مخمليّةٍ بنفس اللون، كنت أخصِّصه لفسحاتنا الثقافية وسهراتنا في المطاعم الراقية.

وصفت لها الفستانين في إحدى جلسات الفردوس، وقلت لها إنهما ينتظرانك هناك. حكيت لها أحلامي التي تتقاذف فيها في كل بحار الدنيا السبع، في أجمل شواطئه وجزره وأروع مطاعمه.

ابتسمتْ، لم تقل: "لا" (لا يحب السلفيّون هذه الكلمة، وينصحون بعدم استخدامها إلاّ في التشهُّد)، لكنها لم تعمل مثقال

ذرّة للاقتراب الملموس من الحلم. ولم تُبدِ شوقاً مقنعاً لموعدنا القدَري في باريس!...

تمرُّ الأشهر والسنين دون أن نقترب من الحلم كثيراً. صار بالنسبة إلي ملحّاً، ثوريّاً أيضاً: انتشالُ هذه العبقرية الحسناء، التي ترفد هيئة أركان الظلاميين بداعيات يملأن شوارع صنعاء بـ"مليونيات" طيور الظلام، أفضلُ رصيدٍ أستطيع تقديمه لـ"ملاك الثورات" يوم البعث والحشر والنشور...

تدخل اليمن منذ ٢٠٠٦، ومع عام ٢٠٠٩ بشكلٍ خاص، في دوامة صراعات سياسية تنذر بصوملتها وسقوطها في فوضى حروبٍ وخرابٍ لن تنهض منه: "الحراك الجنوبي" يطالب بانفصال الجنوب ويعتبره محتلاً من الشمال منذ غزوة ١٩٩٤، حروب لا تتوقّف بين النظام والحوثيين في صَعدَة، رفضٌ عارمٌ للنظام في كل اليمن تقريباً...

أواصل مع هاويتي أوبرا علاقتنا السريّة المتأصِّلة، وجلسات عشقنا التي لا يتوقّف توهّجها وتجدُّد متعتها. لكن الموعد القدَري خارج اليمن، مع هذه الحسناء، لا يبدو وشيكاً بعد.

أحمل لها كثيراً من الهدايا التي تحبُّها، على أمل أن تربطها عضويّاً بباريس. أحاول امتلاك زمام المبادرة: أصف لها دون توقف مدن الغرب، ما ينتظرنا هناك من رحلات وزيارات واكتشافات، طقوسَ الثقافة والحريّة...

تهيم أثناء سماعي، تبتسم كطفل، ثمّ تقطع حبل الهيام على حين غرّة، كمن يطرد شيطاناً تسرّب إلى دماغه وهو يصلّي!

تجرُّني "لأدخلَها"، حسب تعبيرها المفضّل، كي نواصل

أوركيسترا جلسات الفردوس كما تحب.

تغمض عينيها وأنا أغرقٍ فيها لتهيمَ بعيداً (من يدري؟) في الشواطئ والجزر البعيدة التي لا أملٌ وصفَها لها...

غير أني بعد بدء ثورة الربيع اليمني، في ١١ فبراير ٢٠١١، اقتربتُ كثيراً من الحلم، أو ابتعدتُ عنه أكثر، لا أدري!...

# الفصل السادس عشر

منشور من حائط صفحتي في الفيسبوك:

عندما كان بن علي هارباً يلهث في الطائرة بحثاً عن بلد يأويه، كنت أكتب مقالي الأوّل: "حان موعد رحيل طاغية اليمن!". بعثته طازجاً إلى قائمة بريدٍ طويلة، وإلى صحف عديدة...

لم تقبل نشرَه صحيفةٌ عربيّةٌ واحدة، لأنه كان متقدِّماً ومبكّراً حينها.

لم تنشره لي إلا صحيفةٌ إلكترونية، قبل نهاية يناير ٢٠١١، بعد أيامٍ من رفض الصحف الورقيّة له، سأظلّ ممتنّاً لرئيس تحريرها المبجّل: ص. ش.!

منشور من حائط صفحتي في الفيسبوك:

عشية ١١ فبراير، تجمّدتُ مشلولاً على كرسي مكتبي وأنا أتابع خطاب عمر سليمان على شاشة كمبيوتري. انتظرَ الجميع أن يقرأ خطاب تنحّي مبارك، لكنه قرأ خطاباً معاكساً لا يُفهَم منه شيء.

شللٌ حقيقي (أدركت بفضله كيف يموت الإنسان، معزولاً وحيداً

في بيته، دون رفيق، قبل أن يكتشف الناس أشلاءه الرميمة المتخثّرة بعد أيام، بعد أسابيع وأكثر).

انقطع الإنترنت داخل مصر بعد الخطاب. يأسٌ عميمٌ في الخارج.

كتب حينذاك أحد الخبراء الفطاحل المتخصِّصين بمصر على صفحته في الفيسبوك عبارات تغلغلتْ في مساماتي كدبّوس: "لن يرحل مبارك! ضجيجٌ كثيرٌ مقابل لا شيء!".

صدمة!

لم أستطع أو أودّ النهوض عن كرسي مكتبي. شللٌ حقيقيٌّ حميد. لعلي نمت عليه سويعات قليلةً فقط قبيل الفجر. ظللت مشلولاً عليه بشكلٍ طوعيٍّ حتّى عصر الغد، ١١ فبراير، عندما قرأ عمر سليمان، ببدلته الزرقاء الأنيقة وقامته السامقة المتخشّبة، بياناً مقتضباً من أربع جمل، لم يرتكب فيها خطأً لغويّاً واحداً: بيان التنحّي.

المشلول يرقص، يقفز، يطير...

لم أترك صديقاً أحبّه في الكون دون أن أتّصل به لأفرغ أطناناً من الفرح!...

منشور من حائط صفحتي على الفيسبوك:

خسّرني القذافي ما خسّرني، إذا جاز القول:

كنت أتابع بهلع أخبار القصف على شارع طرابلس بمصراته. أفتح القنوات من آيفوني وأنا أقود السيارة. أنسى الأضواء الحمراء وبقية إشارات المرور. النتيجة: خسرت عشر نقاط من الاثني عشر نقطة

التي تُسحَب بعدها بطاقة ترخيص القيادة. كل ذلك بسبب شارع طرابلس بمصراته!

ليس ذلك فحسب، لكنني أضعت حقيبة ظهري التي صارت مع مرور العقود جزءاً من جهازي البيولوجي (أحمل حقيبة ظهر منذ أوّل سنة جامعية. أوّل هديّةٍ من زوجتي لي كانت حقيبة ظهر وقلم حبر ثمين. لا أخرج منذ ذلك اليوم أو أدخل دون حقيبة ظهري).

أضعتها في باريس بكلِّ ما فيها من وثائق وأمتعة ثمينة، عندما توقّفت أثناء المشي، لأمكث في ركنٍ هادئٍ أتابع فيه خبراً تلفزيونيّاً عاجلاً في الآيفون عن شارع طرابلس بمصراته.

من شدّة القلق والارتباك، بعد الجلوس نصف ساعة ربّما، واصلت المشي دون أن آخذ كعادتي، بشكلٍ لا إراديّ، عضواً من جسدي تركته على الأرض...

عدتُ إلى نفس الموقع بعد ٣ ساعات بحثاً عنه، عبثاً!...

كلّفتني مصراته ما كلّفتني!

أردتُ أن أسحب ٣٠٠ يورو ببطاقة البنك من ساحبٍ آلي في شارع، قبل الذهاب لشراء صحيفة **اللوموند** المسائية لمتابعة أخبار شارع طرابلس بمصراته. من فرط تعجّلي وضعت بطاقتي في فلقِ الساحب الآلي، استعدتها وهرولت نحو المكتبة دون أخذ النقود التي تخرج بعد سحب البطاقة!

لم أكتشف ذلك إلا عند محاولة دفع ثمن الصحيفة: وجدت جيبي فارغاً إلا من بطاقة البنك!

قائمة تعويضاتي التي سأطلبها يوم الحشر من القذافي طويلة:

منها تذكرتا سفرٍ بالطائرة فقدتهما بسبب جنونه وهمجيته وتحويله الثورة السلميّة إلى صراعٍ عسكريّ.

التذكرة الأولى أثناء أيام قصفً مصراته. كنت في طريقي إلى مؤتمرٍ ببولندا. مترو الذهاب إلى مطار شارل ديجول (الذي آخذه من محطة قطارات الشمال بباريس، أكثر من مرّتين في الشهر، منذ عقدين على الأقل) أخذته هذه المرّة باتجاهٍ معاكس يؤدي إلى مطار أورلي!

فقدت الرحلة وحجز الفندق بسبب استغراقي في المترو في متابعة أخبار مصراته، دون أن أركِّز على محطات المترو التي أعرفها عن ظهر قلب، والتي كنت أعبرها بالاتجاه المعاكس!

وفقدت تذكرةً أخرى، بعد استفحال عسكرة الثورة الليبيّة، وأنا في مطار بوفييه في طريقي إلى جزيرة سَردينيا. مكثت في مقهى المطار وقتاً أطول من اللازم أتابع الأخبار وأتناقش مع جارةٍ بديعةٍ في المقهى عن القذافي، وما أدراك ما القذافي، دون أن أنتبه أنّ بابَ الدخول إلى الطائرة قد أُغلق!...

منشور من حائط صفحتي في الفيسبوك:

بدأتْ روائع الثورة اليمنية تأتي من "ساحة الحريّة" بتعز: كومونةٌ راقية، بنشاطات فنيّة وثقافيّة جذّابة، تفتح الباب لثورةٍ بدت مدهشة.

ثمّ جاءت الآلام متواترةً من عدن، حيث الحراك الجنوبي (الربيع الجنوبي الذي سبق الربيع العربي بثلاث سنوات) كان عظماً في حنجرة النظام منذ ٢٠٠٩.

كان الضرب الوحشيّ على عدن من قبل النظام تراجيديّاً، مرعباً، ينزف حقداً وبشاعة!

عشرات "الشهداء" منذ الأيام الأولى لانفجار الثورة في عدن.

كنت معهم في كل ساعةٍ ولحظة...

أعرف كلَّ أوجاع هذه المَدينة المسفوكُ دمُها منذ حرب ١٩٩٤، هذه المدينة الكوسموبوليتية الساحرة التي صارت مرتعاً لنهب القبائل ومرقصاً لأحقادهم. أدرك تماماً مدى بشاعة وجنون النظام وهوسه لإطفاء الثورة التي تشتعل فيها منذ ٢٠٠٩...

*********

"قبل أن يَصلُبَ مولانا البوعزيزي نفسه، من أجل أن نتحرّر ونحيا" (صرت أتنحنح كثيراً عندما أعيد قراءة هذه العبارة التي كتبتها ذات يوم) فقدت الأمل كليّةً ليس فقط في رؤية غروب الرأسمالية (أنا الذي أعشق منظر الغروب) وإشراق شمس الاشتراكية والمساواة، بل حتّى في رؤية غروب عصر الطغاة العرب وديكتاتورياتهم الظلامية العتيقة، أو حتّى أحدهم فقط.

فقدت الأمل كثيراً أيضاً في رحيل هاوية من مستنقع حياتها في مجمّع قصور الإمام لتطوفَ العالم معي، كما أحبّ.

كنت حينها مشتاقاً لأحضانها بضراوة: لم أرها منذ الصيف الماضي. لم يحدث لنا منذ لقائنا الأوّل في جلسات الفردوس أن نفترق ردحاً من الزمن بهذا الطول: لا أستطيع، لظروفٍ مهنيّةٍ لا

مناص منها، الوصولَ إلى صنعاء قبل ١١ مارس. أي: بعد شهرٍ بالضبط من انطلاق الثورة اليمنية وسقوط مبارك!

تفجّرت كلُّ أحلامي القديمة دفعةً واحدة عند اندلاع ثورة تونس، ورؤية الكلمة المقدسة: "إرحلْ" على لوحةٍ ترفعها شابّةٌ مدنيّةٌ عاريةُ الساعدين، بهيّةُ الطلعة، جميلة المحيّا، عذبة الابتسامة، ترفرف مع لوحتها على عرش أكتاف حبيبها. شعرت بالدوار من فرط روعة هذا المنظر الذي لم أكن أتجرّأ أن أحلم به!...

صعدتْ إلى السطح حينها ذكرياتٌ مؤثِّرةٌ عارمةٌ حميمة: رفعتُ نجاة، في "عيد اللومانيتيه" وفي مسيراتٍ شعبيّة وحفلاتٍ فنيّة في فرنسا وخارجها مرّاتٍ ومرّات، مثلما رفع هذا الشابُّ حبيبته...

ولّت نجاة، ولن أجد بعدها من تتربّع على كتفَيّ لتقول لكلِّ طاغيةٍ في أرخبيل الكوكب الأزرق: "إرحلْ!".

ولّتْ لتتركني وحيداً مسلوباً، كافراً بهذا العالم. أعيش، تحت الأقبية، عشقاً غامضاً مغشوشاً أتقاسمه مع "طبينٍ" غادر. أناطح تنّيناً، أنتظر موتي بهدوء.

ولّتْ ضحيّةَ الدعوات الإرهابية التي تزدهر في ديكتاتورياتنا العربية المتعفّنة، والتي تقول ثورة تونس لأحد قادتها: "إرحلْ!"...

عشت بعد تونس ثورةَ مصر وأمجاد ساحة التحرير دقيقةً بدقيقة.

بدت كومونةُ ساحة التحرير عروسَ أحلامنا بدون منازع: ثورةٌ "من طرازٍ جديد"، دون حزبٍ طليعي، دون بلاشفة، دون مناشفة، في ساحةٍ أسطوريّةٍ خالدة، وبسلاحٍ عصريٍّ عبقري: الإنترنت!

تبرعمَ الأمل أكثر فأكثر بعد دخول ليبيا على الخط أيضاً. كنت

في القطار عندما ألقى القذافي خطاب "زنقة زنقة". أراقبه في الآيباد يرتجف. لم أصدِّق عينيّ وأنا أرى "ملك ملوك أفريقيا" عارياً يُرثى له. كلّما تفرقعَ أكثر، بدا منهاراً بشكلٍ أجلى. أشفقتُ عليه فعلاً!...

غير أنه نجحَ في تحويل الثورة إلى صراعٍ عسكري، وبدأ بنسفها بالطائرات والأسلحة الثقيلة!

انتهت فرحاتي وأنا أتابع القصف العسكري على شارع طرابلس بمصراته. أرتجف هلعاً كل يوم، كما لو كنت أسكن فيه مع عائلتي وأطفال أطفالي.

تغيّر كلُّ شيء: انتقلنا من ثورةٍ إلى حربٍ وجنون!

غير أن ألياف العصبية كانت مشدودةً لخفقات ثورة اليمن، ليل نهار.

تضاعفت، قبل هذا وذاك، أشواقي لعناق هاوية.

أحنُّ بلهفةٍ مضاعفة إلى جلسات العشق، إلى بروفات الفردوس في هذا الزمن الجديد، زمن ما بعد انطلاق الثورات!...

١١ مارس ٢٠١١:

تصل الطائرة في الصباح الباكر إلى عاصمة ثورة الربيع اليمني: صنعاء!

ظروفٌ مخيفةٌ وقلقٌ منذ لحظة الهبوط. اختلف الحديث مع سائق تاكسي المطار الذي نقلني إلى الشقّة عن كلِّ حديث:

- لماذا جئتَ في هذه الظروف؟ أنت مجنون؟

- بالعكس، تأخَّرتُ عنها شهراً بالوفاء والتمام. أنتظرها منذ

قرون! كان بودّي الانغماس فيها منذ اليوم الأوّل!

- من هي؟

- الثورة!

- أية ثورة؟

- الثورة اليمنيّة!

- آه، الثورة اليمنيّة!... أنت وحظّك!...

- .......

أخرجني من اضطراب لخبطةِ أسئلته، قال:

- بس، كأنّك تتحدّث عن امرأة!

يبدو، مع ذلك، للعين المجرّدة أن ثمّة شيئاً ما يشبه الثورة، الأمل: صور الطاغية ممزَّقةٌ على الجدران، شعاراتٌ جديدة تنبت هنا وهناك، نداءاتٌ وأحاديثُ متمرِّدة ألتقطها في المطار وأثناء عبور صنعاء المشطورة بين قوّتين:

قوّة النظام وعسكره التي غرستْ خيامَ بلاطجتها سريعاً في "ساحة التحرير"، في شارع التحرير القريب من صنعاء القديمة، خوفاً من أن يحتلَّه الثوار ويكون صدىً لساحة التحرير في القاهرة التي أسقطت مبارك (والتي استُعير الاسم منها في لحظة انطلاق التحرير الجمهوريّ في ١٩٦٢).

وقوّة الثورة والمعتصمين في الساحة والشوارع المتاخمة للجامعة، التي وجدتْ هنالك البديل، وأسمتْه: "ساحة التغيير".

هكذا تشبه صنعاء قافيةَ شطرين متنافرين لبيتٍ من الشعر العربي العموديّ القديم. نهاية شطره الأوّل: التحرير، والآخر: التغيير.

قد يقول غيري إنّ من الأجدر استبدال نهاية الشطر الأوّل بـ"التكفير" (لأن كلَّ الراسخين في عِلم التكفير ينتمون للساحة الأولى)، ونهاية الشطر الثاني بـ"التفجير" (لأن كلَّ القتلة والمجرمين وبطارقة علوم التفجير ينتمون للساحة الثانية).

تغيير، تكفير، تحرير، تفجير...

تشبه عاصمةَ بلدٍ تتفرقع كلُّ قوافيه الجامدة السحيقة. يراقبه العالَم باستغراب،

بعدم اكتراث،

بنصف اعتراف،

وبدهشة مشوبة بشيءٍ من الإعجاب...

كان واضحاً وأنا أعبر صنعاء باتجاه الشقّة:

بعد أقل من ٣ أشهر من رحيل البوعزيزي، سقط فعلاً جدار الخوف في أدمغة الناس، كما يبدو للعين المجرّدة.

تذكّرت عبارة سارتر: "ليس بمستطاع أحدٍ، حتّى الآلهة، قهرُ إنسانٍ تفجّرت في روحه ينابيع الحرّية!".

تضخّم الحلم في رأسي وتمدَّد وتمطمط في كلِّ الاتجاهات!

ألهث نحو الشقّة. أغتسل بماءٍ يرفض أن يصل، ثمّ يتقطَّر بارداً جدّاً، بمشقّة... تلتهب أشواقي للذهاب إلى "ساحة التغيير" في تخوم جامعة صنعاء (مركز الكومونة الثوريّة اليمنية) واللحاق بـ"جمعة الغضب" التي أتابع أخبارها من قناة الجزيرة وأنا أغتسل تحت حنفيّة بلا ماء.

كهربةٌ ثوريّةٌ محمومةٌ تعصف بي. أعيش أخيراً اللحظة التاريخية

التي أنتظرها منذ ولادتي، وقبل ولادتي بقليل: لعلّي لن أعيش غروب الرأسمالية، كما حلمت كثيراً مع نجاة، لكني سأعيش على الأقل، وبشكلٍ مباشر، غروبَ الطغيان وشروقَ عالمٍ عربيٍّ جديدٍ يدخل العصر!

أصل ساحة الثورة قبيل صلاة الجمعة. جوٌّ ثوريٌّ مهيب لم أتصوّره. خيام المعتصمين في كل مكان. كلُّ ثائرٍ كتب أو يكتب أحلامه في ورقةٍ يرفعها على خيمته أو يلصقها على ظهره.

ملحمةٌ من الأحلام كم ندمت أني لم أجمِّعها في كتاب، وإن احتفظتُ بأحدها فقط. صوّرته بكاميرا تلفوني، أضعه هنا كما رأيته فوق خيمة شابّة قرويّة:

"حلمي: سيّارة 'هيلوكس' أبو غمازتين. وبودّي أن تكون: حمولة واحد طن.

أُحمِّلها قات عنسي وأمشي بها الخط الطويل من الجند، إلى تهامة، إلى عدن... وألقط من الطريق مسافرين أحصل منهم حق البترول والزيت وصرفة البيت... وأسمع حزاويهم والأخبار.

حلمي أتزوّج وليد "من تحت كمِّ أمِّه"[1] يخدم أبي ويقوم بواجبه.

حلمي شنطة لابتوب أبو خانتين، خانة للّابتوب وخانة (للرشاش الآلي الروسي، أبو عطفة).

وأبحث عن أرملة تغطِّي دوامي الوظيفي في مكتب الإعلام، أعطي لها نصّ الراتب (ثواب)، ونصّ الراتب أفعل به جمعيّة بثلاثة مليون ريال، أستلمها في ذي القعدة وأطلع أحجّ بها أنا وأمي وأبي .

١ إنسان بلا تجارب، لا يعرف إلا أمَّه.

وفي بداية ٢٠١٥م أصدر روايتي الأولى بعنوان: **فتاة من آزال!**".

أعدت مراراً قراءة هذا الحلم البريء الذي انبثق عمودياً من الطبقات الجيولوجية السفلى للاوعي شابّة ريفيّةٍ رقيقة أذكر أنني التقطت اسمها، سلمى الذمارية، وأنا ألفُّ وأدورُ قربَ خيمتها وصديقاتها.

نزيفٌ من الصّدق. روحٌ رشيقة. انحنيت أمام خيمتهنّ، مشيت على أطراف الأصابع!...

نقاشاتٌ ثنائيةٌ حميمة، موسيقى ثورية، شعاراتٌ تُردَّد هنا وهناك، ندوات، صلوات، خطابات دينيّة...

تذكَّرت "عيد اللومانيتية"، حجَّنا السنوي، نجاة وأنا؛ عشقنا الدائم (نحن اللذين تمنينا أن تكونَ الحياة عيدَ لومانيتيه بحجم الكرة الأرضية)، وإن كان، بالمقارنة بساحة التغيير، ينتمي لكوكبٍ وقرنٍ آخرين.

دموعٌ صامتة: لأوَّل مرّة أرى معلَماً كهذا في صنعاء يذكِّرني بنجاة.

أين هي الآن عزيزي لاطش الأرواح؟

ماذا عملتَ بروحها النقيّة الطاهرة، يا ملاكاً لا قلبَ له؟ في أيِّ جهة من "وادي الدموع" تحلِّق؟ متى سألقاها؟... صدِّق أو لا تصدِّق عزيزي مفرِّق الجماعات وقاتل المسرّات: ما زلت أحلم أحياناً أنها في طريق العودة من مكتبة جوزيف جيبير، حاملةً كيس روايات صغيرة وحزمةً من أقلام الرصاص!

كم أحلم اليومَ أن أسير معها هنا، في ساحة التغيير، نتحدّى القبائل!

كومونةٌ ثوريّة حيّة هذه التي أتجوّل فيها. أمكث لحظات في

خيمات ترفع شعارات مدنيّة، وفي خيمة موظفي الجامعة والحزب الاشتراكي اليمني... قلبي ينتفخ أملاً وسعادة.

تتفجّر فيَّ نفسُ تلك السعادة الميتافيزيقية القديمة التي كانت تطفح فينا نحن الاثنين، نجاة وأنا، ونحن نذوب في معزوفةٍ جماعية تحتفل بالحياة والأمل والثورة.

لا أقترب كثيراً من خيمات القبائل والسلفيّين والإخوان المسلمين والحوثيّين (أتباع إمام آل البطْنين: ذريّة الحسن والحسين).

أي: معظم خيمات الساحة!

يختلط في الساحة الحابل بالنابل: من المتديّن السلفيّ في الغالب إلى العلمانيّ في أحيانٍ نادرةٍ جدّاً، من القبيليّ في أغلب الوقت إلى المدنيّ الناضج بين الحينٍ والحين، من الأمِّيّ المسحوق أو نصف الأمِّيّ غالباً إلى المتعلِّم المستنير، من الفقير المسحوق و"البروليتاري الرث" (حسب مصطلح الأيام الثورية في عدن) والوجه الأغبر في معظم الأحيان إلى المثقف الأنيق المشعشع!...

"شارابية"، كما يقال بالفرنساوي المستورد. "عصيد"، باليمني الفصيح!

كنت واثقاً أنَّ "السبعة الكرام البررة"، الذين يضعون "لايكات" الإعجاب على منشوراتي في الفيسبوك، موجودون بين من رأيت، في مكانٍ ما من الساحة!

لو لمٍ يكن لهم، مثلي، أسماءٌ تنكريّة في الفيسبوك لعرفنا بعضنا البعض، وتعانقنا بحرارة، وشربنا معاً نخب لقائنا الأوّل: كأساً من عصير المانجو، لا أكثر!

لا توجد بيرة هنا بالطبع، رغم أن مذاق بيرة "صيرة" (التي ألغى مصنعها في عدن ظلاميو حرب ١٩٩٤ لصالح مهربيّ كلّ أنواع الخمور، في رأس الجيش والسلطة) ما زال لذيذاً عبقاً في الوجدان!

مثل كلِّ أسبوع: تحضيراتٌ لصلاة الجمعة، في قلب الساحة، ستسبقها خطبةٌ دينية ثورية!

أدعية، أذانٌ يهزُّ الساحة...

أخافني هذا الحضور الكثيف للدِّين في هذه الثورة، أنا الذي أعرف المخاطر التي تكمن جرّاء خروج الدِّين من المسجد إلى الشارع. لكنّ قلبي كان يرتجف من السعادة والدهشة والأمل، مع كلِّ ذلك!

تساءلت أيضاً: لماذا لا أصلِّي الجمعة معهم، أنا الذي قطعت حبل السرّة مع الطقوس الدينية، منذ الرابعة عشرة من العمر، إثرَ عشقي من أوّل نظرة لـ"الدرجة المائة" في كتاب بوليتزر؟

سأدعو في الصلاة، من كلِّ قلبي، أن تنتصر الثورة، وتسقط العائلة الحاكمة، ويبدأ اليمن الجديد!

سأتضرّع إلى الله أن يترك هاويتي "ترحل" معي في هذا العالم الفسيح، أو أن أعيش معها قرب البحر، في عدن (في جزيرة "عمران" مثلاً التي تحمل اسمي)، أو حتّى في مدينة "عمران" المخيفة جدّاً القريبة من صنعاء، أو في هذه الأخيرة (التي بدأت أهواها بضراوة) بعيداً عن مجمّع قصور "غُورُو" هاويتي اللعين، "طبيني": الإمام الهمداني!

أين هو؟

الإمام الهمداني (الذي يُعتبر الآن من كبار معارضي الرئيس، فيما هو فلذّة كبد نظامه!) سافر إلى دولة مجاورة، مع ابنه الإمام عمر، خوفاً من تعرِّضهما لاعتداء قوات الأمن، لأن خطاباته تُغلي وتحرِّك الجموع المؤمنة ضد النظام!

الأمل يتضاعف في جوانحي اليوم وقد صارت هاويةُ بعيدةً عن جلاّدها الهارب، وزوجها ابنه المقيت. لم يبقَ لي إلا استغلال هذه الفرصة التي لن تتكرّر، وتخليصها منهما بشكلٍ نهائيٍّ حاسم.

الأمل والتناقض معاً: عدوّي الأكبر من أهمِّ "مؤدلجي" هذه الثورة (ثورته وثورتي معاً!) ومن أبرز قادتها ورموزها وملهم كثيرٍ من ثوّارها!

أتستطيع، عزيزي قابض الأرواح، استيعابَ هذه المعادلة المجنونة، أو فكَّ بعض رموزها فقط؟

أما أنا فلا أفهمُ شيئاً! تتفجَّر "فيوزاتُ"[1] دماغي كلّما حاولت أن أستوعب ذلك!...

أهذه ثورةٌ أم مطبّ؟

أمن الأفضل الإصابة بسرطان الدم (النظام الحالي)، أم سرطان المخ (نظام السلفيّين)، الطاعون أم الكوليرا؟

الأدهى: في طليعة هذه الثورة، قائدتها ورمزها بشكلٍ أو بآخر: امرأة، مثل جان دارك الفرنسية، صدِّق أو لا تصدِّق ذلكَ، عزيزي الغالي ملاك الموتى!

---

١ الوصلات القابلة للانصهار.

خيمتُها، مع بعض صديقاتها من الداعيات، كانت أوّل الخيمات التي انغرست في الساحة. يَنَمْنَ فيها ليل نهار. تنطلق منها شعارات ثوريّة يردِّدها الصغار والكبار، بعد جان دارك اليمن (أو "قَبول المجنونة"، كما يسمّيها أحد "السبعة الكرام البررة" في أحد منشورات حائطه في الفيسبوك، دون أن يدرك أنه يجرحني بهذه التسمية):

تخرج من خيمتها كلَّ صباح، بعد الفطور مباشرةً، كأنّها مدرِّبةٌ رياضيّة لفريقٍ من صغار شباب الثورة. الجميع ينحني إعجاباً أمام صدق عدائها للنظام، ومواجهتها له بشجاعةٍ لا تخلو من تطرّف.

"بطلة"، "امرأة بألف رجل"، يسمِّيها الكثيرون.

تهتف جان دارك اليمن، (مثل الحسّاني في طفولتي) بصوتها العذب السامق:

"كلما زدنا شهيد"،

يردِّد بعدها شبابٌ مجاذيب بشكلٍ آلي (مثلما كنّا نردّد بعد الحسّاني):

"صرنا ثوّار من حديد!"...

من هي؟

امرأة تبدو أكثر شباباً من عمرها الحقيقي، كما لو كانت في الثامنة والثلاثين فقط، وإن صغرتني بست سنين لا غير. داعيةٌ دينيّة خلعت منذ اندلاع الثورة نقابها لينكشف وجهها الساحر الذي ينحني عند رؤيته الجميع!

قضّيت نصف وقتي في باريس، منذ اندلاع الثورة، أتابع أخبارها

في الفيسبوك، أتابع مقابلاتها الإعلامية في القنوات التلفزيونية والصحف العالمية...

تتحوّل هكذا شريكتي في حوار "دكان الأعمى" الصامت، رويداً رويداً، إلى ناقوسٍ يدقُّ في عالم الثورات!

لكن لماذا خلعت نقابها، هي التي لم أسمع منها يوماً أدنى رغبةٍ في خلعه؟

أذلك من بشائر الثورة ومفعولها السحري؟ دليلُ تغييرٍ حقيقيٍّ فجّرتْه في وعي معشوقتي؟ بازغةُ أمل؟

أم ثمّة قرارٌ حزبيٌّ أجبرها أن تصبح واجهةً نسائيةً دوليّةً لهذه الثورة؟ أم هناك من فذْلَكَ في مكانٍ ما لأن تكون الرمزَ الذي يهرع الصحفيون الأجانب والقنوات الخليجية للاقتراب منه وتصويره واللقاء معه؟

هل سأراها في الساحة؟ هل ستأتي إلى الشقّة بعد ساعات، حين أغادر ساحة التغيير وأعود إلى طقوس انتظار بروفات الفردوس التي أشتاقها بضراوة، كما لم أشتقها يوماً؟...

لا أستطيع أن أتصوّر كيف ستكون روعة جلسات عشقنا في معمعان ثورةٍ تحرّرت فيها هاوية من نقابها، ومن الإمام الهمداني وزوجها الإمام عمر، الهاربَين خارج اليمن للاحتماء من انتقام الرئيس، لأنهما في مقدمة معارضيه؟

اقترب وقت صلاة الجمعة. يتوجّه الجميع، دون استثناء، نحو فناءٍ في قلب ساحة التغيير...

لماذا لا أصلّي مثل الجميع؟

لم أتردّد!... انخرطتُ مع جموع المصلين بحماسةٍ ورغبة، وبخشوع أيضاً (وإن كنت قد نسيت تماماً أنه يلزم بدء الصلاة بالوضوء!).

قبعتُ في الصفوف الأخيرة لأصغي للخطبة. احتجتُ وقتاً لإدراك أن هذا الخطيبَ "الثوري" فقيهٌ شهيرٌ مُعادٍ لمنع زواج القاصرات: الشيخ عبد الرحمن، الصديق الصدوق في السرّاء والضراء للإمام عمر محمد الهمداني، بشحمه ولحمه!

شعرتُ برجّة!

لا يجوز في ديني الصلاة وراء مجرم يُحلُّ نكاح الأطفال!

تساءلت: ماذا أعمل هنا؟ أجننت وأنا أستمع لخطاب هذا الطامّة الكبرى؟ ألا أشعر بالخجل، وأنا أصغي لمجرم؟...

بعد بضع دقائق: ضيقٌ خانق، ورغبةٌ في مغادرة الساحة وإغلاق هذا الملف "الثوري"، دون ندم.

خطابه: عباراتٌ عتيقة لتاريخٍ غير علميٍّ لا أعترف به. تنويمٌ مغناطيسيٌّ وغسيل دماغ...

(ألاحظ على محيّا صديقي ناهبِ الأرواح تأفّفاً من ثورةٍ تفتح أبوابها لأبشع الظلاميين. أسمع زفير خيباته...

حاولت التخفيف من وطأة حديثي على صديقي الذي يمقت النفاق وأقنعة الدجّالين أكثر منّي.)

استطردت:

لُذتُ، عزيزي الغالي كاسر الملذّات، من ضجيج الشيخ عبد الرحمن بالذكريات:

استعدت لحظات صلوات طفولتي في مساجد عدن، قبل "حنجلة"[1] "الدرجة المائة" في كتاب بوليتزر، وأنا في الرابعة عشرة:

كم كنت أحبّ مراوحَها (التي تقينا لظى سخونة الجو وكثافة الرطوبة)، براءةَ وطيبةَ فقرائها، ومشروبَ "فيمتو" المثلَّج الأحمر الفاقع والحلاوة اللذين يوزّعان للجميع بعد صلوات العشاء، داخل المسجد (عندما تكون هناك صلوات تأبين لميّت، تسمّى "دروس"، تليها جلسات تلاوةٍ قرآنيّةٍ تُهدى حسناتها وثوابها لروحه: أوركسترا تمتمات أصغي إليها بأذنٍ رهيفة، وسط أضواء نيون المسجد البيضاء وهدير المراوح الكهربائية)...

بدأتُ صلاة جمعة الغضب. لاحظت بسعادة: ما زلت أتذكّر طقوس الصلوات وإرشادات أدائها ونصوص تراتيلها وآليات خطواتها.

قبيل نهاية الصلاة، عندما كان الجميع مستغرقاً في السجود وترديد "التحيات المباركات" بصمت، نهض من سجوده طفلٌ جاء للصلاة مع والده، ليهتف وسط جموع المصلِّين: "الشعب يريد إسقاط النظام!"، هذا الشعار الساحر الذي يفجِّر فيّ طاقات لا حدّ لها (والذي كنت أردِّده لوحدي في جولاتي الباريسية الصغيرة أو في أروقة بيتي، في "مليونياتٍ" فرديّة تحاكي مليونيّات جُمَعِ مصر واليمن!).

كتمت ضحكتي بصعوبة في قلب الصلاة، وأنا أسمع الطفل الواقف يرتِّل لوحده آيتي المفضَّلة وسط الراكعين!

---

١ وضع الرِّجل بين ساقي الآخر لعطفهما وإسقاطه على الأرض.

"رمزٌ تعبيريٌّ نابض: طفلٌ واقفٌ وسط كبارٍ راكعين!"؛ قلت لنفسي من باب "الدعاية والتحريض" الثوريّ الذي يرفع معنوياتي على الدوام!

لكلٍّ تنويمه المغناطيسيُّ المفضّل، حبيبي هادم المسرّات!

ما إن انتهت الصلاة حتّى نهض كثيرون مثلي يهتفون وراء الطفل: "الشعب يريد إسقاط النظام"، الذي بدأ مفعوله السحريّ يغيظ بعض قادة "اللجنة التنظيمية"، فصاروا يردِّدونه أقلّ فأقل، وبمضض، وذلك لصالح شعارات أخرى أكثر دينية...

لاحظت: تزعجهم جدّاً هاتان الكلمتان: "الشعب يريد"، تقضُّ مضاجعهم. لأن من "يريد" هو الحاكم، الملِك، أو مالك المُلك... لكن الشعب يطيع فقط، يخضع للملِك، للشيخ، للحاكم، للّجنة التنظيمية...

أما إذا أراد الشعب حقّاً، فهذه بداية النهاية!

السؤال الرئيس الذي لا أعرف الإجابة عنه: هل هذا الشعب قادرٌ أن يريد حقّاً؟

مكثتْ أغلبية المصلِّين تتابع تسبيحات وأدعية الخطيب بعد الصلاة، غير سعيدةٍ بمروق مجموعتنا المتمرّدة لتطوف الساحة وهي تردِّد "الشعب يريد إسقاط النظام" بعد مايسترو صغير يقودنا من فوق أكتاف والده.

أما هم، الأرثوذوكسيون جدّاً، فسيخرجون بعد نداء "اللجنة التنظيمية"، وذلك لمليونيةِ مسيرةِ الجمعة في الشوارع "المحرّرة" من صنعاء المشطورة.

انتهت سلسلة أدعية الشيخ عبد الرحمن بـ"اللهم أهلِك الكافرين!" التي خنقت بلعومي بضع دقائق، لأنها بالتأكيد خارطة طريق مَنْ وضع عبواته الناسفة في مترو سانت ميشيل داخل كيس قمامة!

إلهي، ماذا أعمل هنا؟ ماذا أعمل هنا؟...

بانتظار اللحاق بمسيرتهم، أرتِّل مع الحشد البريء بكلِّ جلافة أوتار حنجرتي، وبكلِّ لزوجة وليونة خياشيمي، آيتي المقدسة: "الشعب يريد إسقاط النظام!". أقذف، بسعادةٍ لا حدّ لها، طنّاً من الطاقات التي تكلّستْ.

أحتاج إلى الصراخ بهذه العبارة حتّى أنهارَ مغشيّاً عليّ وسط ساحة التغيير، أحتاج إلى الانتماء العضويِّ الحميم لأمعاء هذه الساحة، أحتاج إلى كثيرٍ من التفجّر والانتفاضات والجنون!

ثمّ نتقدّم بين الخيام والطرق المتناثرة، على هامش المسيرة الرسمية الكبرى التي يستعدُّ حشدنا المتمرِّد الصغير والسعيد جدّاً للانضمام إليها...

أترك الحشد ونحن نقترب من خيمةٍ يُعرَض فيها فيلمٌ عن دور المرأة في الثورة اليمنية سيُقدَّم إلى مهرجانٍ دوليّ. كنت واثقاً أنه سيتحدّث كثيراً عن إحدى أهمِّ نجمات الثورة: هاويتي!

دخلت الخيمة لأقرفص بين المشاهدين.

نصفها الأيمن نساءٌ قليلات مغلّفاتٌ بسواد كلّي، والنصف الآخر رجالٌ مزدحمون، من القبائل المجاورة في الغالب. بينهما برزخٌ لا يبغيان.

الأغرب أن "اللجنة التنظيمية" أمرتْ أن يقبع الزوج في النصف

الرجولي من الخيمة، بعيداً عن زوجته!

إلهي، أهي ثورةٌ تقودنا إلى الأمام أم إلى قندهار؟...

أترك الخيمة لأني لا أحتمل هذه الطقوس الظلامية متأكِّداً من أني سأجد الفيلم على يوتيوب، وسأرى فيه هاويتي تملأ الشاشة والوجود، من دون نقاب!

يلاحظ تذمُّري الخجول عجوزٌ وارمُ الوجه، متكوِّرُ البطن، "ذماريّ"[1] النكتة، جالسٌ قرب خيمةٍ مواجهة، يحدِّق في الجموع بأعين من يعرفها عن كثب، وبمتعةِ من يُجمِّع زخماً من المناظر والذكريات والمواد الخام، للثرثرة والحكي الساخر بعد عودته إلى ذمار...

– ما بك يا حاج؟ لا تروقك مشاهدة الفيلم كما يبدو؟؛ سألني.

– لم يبدأ بعد... لكن، بالفعل، لا يسعدني تصرُّف منظّمي الخيمة من "الثوريين" وهم يفصلون حتّى الزوج عن زوجته!

– يا ابني: كلُّ هؤلاء الذين تراهم في الساحة أبناءُ من كانوا جمهوريين في الصباح (أي: مع جيش مصر الذي جاء أيام جمال عبد الناصر يدافع عن الجمهورية) وملكيين في المساء مع حشود الإمامة والقادمين من المملكة (أثناء حصار صنعاء، بعد سقوط الإمام في شمال اليمن، في ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢).

لا تصدِّق إطلاقاً أن هذا الشعب الجمهوكي (أي: الجمهوري – ملَكي) يريد التغيير. هو أكبر منافقٍ في الكون، ابناً عن أبٍ عن جد. لا تصدِّقه إطلاقاً!

---

[1] ذمار: مدينة في اليمن يشتهر أهلها بالنكتة الساخرة.

ثمّ أضاف:

- لكني متفائل، ستنتصر الثورة!

ابتسمت سعيداً وتنفّست الصعداء، كنت أريد تقبيل رأسه لشكره على هذه البشارة، قبل أن ألاحظ أنها تتناقض وتصطدم مع ما سبقها، وقبل أن يضيف:

- تجرفك السعادة بسرعة كما يبدو. ألا تلاحظ أن تفاؤلي منافقٌ أيضاً؟

ابتسامةٌ صفراء.

التصقت عبارته بذاكرتي، وازدادت رغبتي في التأمُّل فيها يوماً بعد يوم...

لم أرَ ذلك الذماريَّ الفطين مرّةً أخرى. عبَر حياتي كما تعبر صورة هيتشكوك بعض أفلامه خلال ثوان.

عبرَها كالنبي الخضر وهو يعلِّم النبي موسى كيف يدرك باطن الأمور بألمعيّةٍ تتجاوز القراءة التبسيطية المباشرة (كما ورد في سورة الكهف)!

أسميته: الخضر الذماريّ!

أتردّد في الذهاب باتجاه خيمة هاوية التي تقع، كما عرفت من صفحات الثورة في الفيسبوك: في قلب الساحة!

حولها، كما شاهدت في أكثر من فيلم على يوتيوب: قطيعُ شبابٍ صغار في تدريب ثوريٍّ دائم، تقوم به هاوية مع صديقاتها الداعيات استعداداً ليوم "الزحف الخالد"، يوم الحسم: الهجوم على القصر الرئاسي على إيقاع: "كلّما زدنا شهيد، صرنا ثوّار من حديد!".

أيمكنك حبيبي قابض الأرواح أن تشرح لي علاقة ثورة هذه المحاربة القتالية بطفولتها التي قضتها في معمعان حروب سوسلوف وفيروز التاريخيّة؟

لا أجرؤ على الاقتراب من خيمتها، قدس أقداس الساحة، وإن كنت متأكِّداً أنها خارجها في هذه الساعة، في رأس مسيرة جمعة الغضب التي تطوف المناطق المحرّرة من صنعاء...

لم أواجهها يوماً في الحقيقة خارج غرفة، منذ ١٢ سنة. بيان رصيد لقاءاتها، عزيزي سارق الأرواح، هو الآتي:

مرّة واحدة في غرفة أختي الدكتورة سميّة، ومرّة في صالة فندق (انثالَ قربه سيلٌ من طيور ظلام، كانت تردِّد هذا الشعار المدنيّ الراقي: "الشرع حلّل أربع!") وأكثر من ٣٠٠ بروفة فردوس.

لم نعرف، منذ أن التقينا في بيت أختي، غير حياة شقّةٍ نغلق نوافذها بإحكام. لم نخرج يوماً إلى شرفة، إلى شارع. لم نتجوّل معاً تحت الشمس، على شاطئٍ أو جبل. لم نجلس في مقهى، ساحة، على سطح عمارة. لم نقرفص فوق كثيبٍ صحراويٍّ أو تحت قمر. لم تجمعنا يوماً مظلّةٌ تحت مطر... لم نمارس غير عشق الفئران في الأقبية المظلمة!

يستحيل معرفة كيف وكم سأفاجَأ (وهي أيضاً) إذا رأيت هاويتي في الساحة أمامي، أو إذا واجهتني في شارعٍ ما، أنا الذي قضيت مع ذلك نصف ليالي باريس أتخيّلها تطوفُ معي نصف شوارع الدنيا...

أشاهد بعيداً في الساحة، قرب المنصة الرسميّة، حفل عقد قران

ثائرةٍ وثائر. يرقص قلبي من الفرح.

اقتربت إلى حضور الحفل وصدري يخفق بهجةً وإعجاباً.

ها أنذا أحضر عرساً يمنيّاً لأول مرّة منذ دهر، عرساً ثوريّاً! تكفيني هذه السعادة إلى زمن!

تخيّلت نفسي مع هاوية واقفَين محلّ العروسين اللذين يحيط بهما الرجال والنساء في جهتين مفصولتين متباعدتين.

أيمكنني أن أقبل زواجاً بهذا الشكل، أنا المنقوع بقيم التنوير والمساواة بين الرجل والمرأة؟

لِمَ لا؟... لا ضرر في صبِّ قليلٍ من الماء على النبيذ (أو على الحليب كما يجدر القول هنا).

زفّات زغردات "غطرفة" نسائيّة تكتسح أذني!... نعم، أقبل صبَّ الماء على الحليب، ولو من أجل نبرات هذه الغطرفة السعيدة التي تثقب قلبي، تغزوه كسهم!

لم يكسر كيفي ويعكّر مزاجي إلا صراخٌ من داعيات دينيّاتٍ ثائرات منعن ذلك قائلات: "صوت المرأة عورة!"، وشغَب: "ممنوع التصوير، حسب تعليمات اللجنة التنظيمية".

أحد أعضاء اللجنة التنظيمية ينتزع الكاميرا بعنف من أيدي ثائرة لم تلتزم بالتعليمات.

عراكٌ ورفس!

"يلعن أمَّها ثورة!"، قلت لنفسي بغضب!

ثورةٌ إلى الأمام هذه، أم هرولةٌ إلى قندهار؟

راجعت قراري بقبولي الزواج الثوري مع هاوية على إيقاع

تعليمات اللجنة التنظيمية وتوجيهات الداعيات السلفيات!

تذكّرت لقائي بالخضر الذماريّ قبل قليل. ما أبلغ وأعمق اختزالاته!

اقتربت الساعة من الرابعة والنصف.

هرولت باتجاه تاكسي نقلني إلى الشقّة: من يدري، قد تصل هاوية إليها كما كانت قبل الثورة؟...

نفس الطقوس الخالدة: أراقب بتلصّص من نافذة شقّتي معمعة منزل جاري الذي يشبه إسحاق شامير، والذي لم يخرج بعد لجولته حول العالم.

خوفٌ من قنّاص؟ قلقٌ دائم من مفاجآت؟ وافته المنيّة؟...

كلاّ، ما زال حيّاً يُرزق، أشاهد من نافذتي ظلال حركاته وسكناته داخل صالون منزله... يتردّد، يريد أن يخرج، لكنه لا يخرج!

سكنني يقينٌ خانق: إذا لم يخرج فذلك يعني أنّ هاويتي لن تصل!

أنتظرها بنفس اللوعة القاتلة، أراقبه، أفقد الأمل في أن تأتي اليوم هذه المعشوقة القديمة الجديدة التي صارت أشهر من نارٍ على علم!

أفقد الأمل تماماً: تغيّر كلُّ شيءٍ في هذه المدينة منذ زيارتي الأخيرة، حتّى جاري لم يعد يخرج من منزله ليطوف العالم...

ثمّ، قبيل السادسة والنصف، عندما يتوغّل في صنعاء خوفٌ وسكون ويغمرها الظلام، تتوقّف حافلةٌ قرب عمارة شقّتي. تخرج منها فتاةٌ بنقابٍ وحجابٍ مغبّرٍ قديم، من يراه يرثي فقرَ حالها!

ليست هاوية إذن، وإن كانت لها نفس طلعتها، نفس قامتها السامقة الأنيقة!

فقدت الأمل قطعاً هذه المرّة، لولا (بعد بضع دقائق) نفس قرع الباب الذي أعرفه.

البنت التي واجهتني عندما فتحتُه ترتدي حجاباً آخر، أنيقاً وجديداً، لكنها بنفس النقاب، بنفس الأريج الذي يسحرني ويعيد بعثي من جديد.

ينفتح الباب.

"ساحة التغيير" بأكملها تصل إلى شقّتي!

# الفصل السابع عشر

جلسات عشقٍ ما بعد انفجار الثورة تختلف عمّا قبلها. ليس فقط لأنها تجمع شخصين ينظران في نفس الاتجاه: إسقاط أتعس وأسفل نظامٍ منحطٍّ فاسدٍ عرفته اليمن بلا منازع. يرتجفان لنفس الحلم الثوريّ وبنفس الطّريقة. تحرِّر الثورة فيهما طاقات جديدةً هائلة. يجدان أنّ للحياة أخيراً اتجاهاً حكيماً طال انتظار البحث عنه واكتشافه...

لجلسات عشق ما بعد الثورة سحرٌ مختلفٌ فريد، لا أستطيع تفسيره!

عناقٌ جديدٌ كأننا نلتقي لأوّل مرّة. عناقٌ ودموع!

– اشتقت إليكِ كما لم أشتق إليك يوماً، وهجي!

– وأنا أكثر حبيبي، طال غيابكَ هذه المرّة!

– لكنني كنت معكِ في كلِّ لحظةٍ وسكنة، قلبي!

– وأنا ضعفك مرّات ومرّات حياتي، كادت أعصابي تنفجر لطول غيابك!

(أعشق جهازها العصبي).

لاحظتُ سريعاً أنها وصلتني وفي فمها (لأوّل مرّة!) كتلةٌ مرموقة

من القات. لم تصلني قبل ذلك يوماً وهي تلوك القات. تعرف أنني لا أطيق رؤيته في أي خدّ، لاسيّما في خدٍّ أنثوي!

كانت، في جلسات عشق ما قبل الثورة، تجلب معها بضعة أعشاب بين الحين والحين لا غير، تقطف بعض وريقاتها في ساعتي ما بعد العشق، تمسِّدها قليلاً بدلال ونحن نثرثر بسعادة لا تساويها في الدنيا سعادة. لكنني لم أرَ يوماً أثراً منتفخاً للقات في خدِّها في كلِّ الأحوال!...

بيد أنها هذه المرة تصلني بخدٍّ مفعم بكتلة استفزازية (كانت في قمّة جمالها رغم ذلك، بعينين مكحّلتين بعنايةٍ فائقة، بماكيّاج صارخ، وكأنَّ ثورةً لم تكن؛ وكأنّها ليست جذوةً هذه الثورة التي تبحث وسائل الإعلام العربية، لاسيّما الخليجية والسعوديّة، عن تصويرها واللقاء بها، وتحلم قناصات النظام بتوجيه رصاصةٍ طائشةٍ نحو جمجمتها.

إلهي، ما أبدعها وهي لا تخاف من شيء، بنفس جرأة تمثال "دكّان الأعمى" الذي كان يخترقني بنظراتٍ ليزريّةٍ عموديّة. تغامر في كل لحظةٍ ألف مرّة، تجيد تغيير قبعاتها بزئبقيّة وأخطبوطيّة لا حدّ لسلاستهما وأسفنجيتهما ومطّاطيتهما، وبسرعةٍ لا تخطر ببالٍ!).

لا يحلو، بل يصعب كثيراً، تقبيل فتاةٍ فمها مملوءٌ بالقات: اللسان والشفتان مكبّلةٌ بكتلة القات الرخوة. لا يمكن إذن أداء رقصة فالس اللسانين التي نجد لذّةً غاويةً في ممارستها بعمق، هاوية وأنا. لاسيّما أن ثمّة لغةً كوّنّاها معاً في تفاصيل هذه الرقصة، تقول للآخر كلَّ ما لا يمكن قوله بالكلمات، تُهيِّجه وتُسقطه أحياناً باللكمة الغرامية

القاضية. نصغي إليها دوماً بحساسيّةٍ فائقة، ونميل بِجَدّ لتنويعها وتطويرها اليوميّ باهتمامٍ خاص...

ما العمل وظمأ تقبيلها يستبدُّ بي منذ أشهر؟

فوجئت بها ترغب بشدّة في تقبيلي منذ بدء لقائنا مباشرةً، بشكلٍ أكثر حميميةً، وأمام المرآة أيضاً، وهي تلوك هذه الكميّة الاستعراضية من القات بالذات وبشكلٍ خاص، وكأنها استلمت هاتفاً من زوجها الإمام عمر يأمرها بالعودة سريعاً لأنه في جلسة ويسكي مع الشيخ عبد الرحمن، وتريد لذلك الانتقام منه، تريد الانتقام منه كما لم ترد ذلك يوماً، بسيمفونية انتقامٍ جديدةٍ جدّاً تفاجئني بها بعد شهرٍ بالضبط من اندلاع الثورة!...

تهبط باتجاه خاصرتي!

من لم يمارس العشق مع سلفيّةٍ لن يعرف يوماً ما يحمله الانزياح الطائش الراقص الرجراج (في كتلةٍ دافئةٍ رخوةٍ من قاتٍ مبلولٍ برضاب حورية) من مفاجآت وتشنّجات... لن يعرف ما تعني اللذّة الطويلة التي تتجاوز أمد اللذّة التقليدية.

لذّةٌ شاهقة، أم اللذّات، هاويةٌ من اللذّات الإلهية. أمام ابتسامة عينين مكحّلتين ببذخ، ضاحكتين بفخر وسعادة، تخاطبانك بلغة الأعين وهي تراقص وتراقب، بشهوةٍ وثنيّة، الامتداد الحميم المتشنّج لجسدك المبهوت يغرق في ثغرها...

تغمره وتؤرجحه بحبٍّ خالص في كتلةٍ هلاميّة رخوة، ساحرة التأثير متماوجة الاحتضان، من القات المنقوع برضابها!...

عينان مترعتان بالليل تقولان لك في المرآة وهما تشاهدانك أسير

هذه الأوبرا الفريدة، وتشاهدان سعادة ابتسامتهما في نفس الوقت، وتشاهدانك سعيداً جدّاً برؤية سعادتهما، تقولان:

"تمتّعْ طويلاً، طويلاً، إلى الأبد... كلُّ شيءٍ في هذه الدنيا فانٍ إلا هذه اللحظات المتمرِّدة الفريدة، لا غير! هي وحدها التي ستعود إلى ذاكرتك في الدقائق الأخيرة قبل لقاء قابض الأرواح!".

ما يزيد جمال هذا المهرجان هو أصداء الرصاص التي تغرِّد في سماء صنعاء. ثمّة تناغمٌ لذيذٌ أحياناً بين لعلعتها وإيقاعات عشقِ هاوية.

المجد للثورات!...

لم تنتبه هاوية، عزيزي هادم الملذّات، إلى أن هذه اللذّة الشاهقة ستنتهي بتفجّر ينبوع طال أمد احتباسه أيضاً، نسغي الصَّدفي سيتدفّق من ذَكَري المجنونَ بحرارة. سيختلط الحابل بالنابل في ثغرها كاختلاط الحابل بالنابل في ساحة التغيير...

فوضى، ثورة، سعال، كتلة قات مكتظّة بالسوائل السعيدة، لذَّةٌ عاتية لا تساويها في الكون لذّة... انطفأت الكهرباء في معمعان القذف والربشة. ظلامٌ دامس. ثمّ عشقٌ في ظلام. ثم عشقٌ بالشموع...

العشق أيام الثورة بحثٌ متمرِّدٌ في العتمة عن خارطة الطريق، رقصٌ رجراجٌ حرٌّ يتنقّل بين الظلمة والشموع، على موسيقى الرصاص والانفجارات البعيدة.

عشقُ ما بعد انفجار الثورات عالَمٌ زاخرٌ بالمفاجآت، يصعب وصفه!

ساعتا ما بعد العشق في بروفات الجنّة يختلفان كثيراً أيضاً عن ساعتَي ما قبل الثورة. لم تبقَ هاوية معي في الشقّة إلا خمسين دقيقة

بالكاد: لهاوية موعد لقاءٍ مع إذاعة أجنبيّة. لم أنل وحدي من الخمسين دقيقة أكثر من عشر فقط: كانً الحديث فيها حول الثورة وساحة التغيير ومستقبل النظام، لا غير (بين قليلٍ جدّاً من القُبل العميقة).

ما تبقّى قضته هاوية في الردّ على نُصيصاتها الهاتفيّة الهامّة، وبعض الاتصالات العاجلة جدّاً أيضاً، والتعليق أو بعث إيميلاتٍ حسّاسة على الإنترنت...

لغةٌ مقتضبةٌ تنكريّة أرمقها (ونحن مفترشان السرير، مستلقيان بحريّة، كما خلقنا الله) وهي تطقطق على لوحة مفاتيح ماكينتوشها الخفيف في ضوء الشموع، وتعبر بعينيها المكحّلتين شاشته القابعة خلف نهديها الزاخرين، العذبين جدّاً.

ثورةٌ، حرية، جمالٌ، مجد!...

أحد اتصالاتها الهاتفية فقط بدا لي غريباً نسبيّاً. انسحبتْ عندما رنّ الهاتف إلى طرف الغرفة بلا وعي... تغيّر خلاله صوتها قليلاً. بدأ الهاتف بعبارة دينية "يحفظكْ الله ويرعاكْ حبيبي!" (أزعجني سكون الكافَين: لم أعرف هل تتحدّث إلى ذكرٍ أم أنثى أم خنثى!).

ثم اختفت الصيغ الدينية منه تماماً!

بدا حميمياً أكثر من اللازم، ازداد فيه تواتر عدد لفظها لـ"حبيبي" أكثر من العادة. صار صوتها خلاله شجيّاً راقصاً كما أهواه، بنفس النغمات النديّة التي أعشقها، وإن كان خفيضاً أكثر من اللازم!

كلُّ رادارات حواسي الخمس أو السّت تصغي إلى نبراتها وحركاتها وعباراتها وبريق عينيها أثناءه...

لعلّها تتحدّث إلى داعيةٍ من صديقاتها الحميمات جدّاً، لأن كلمة

"حبيبي" تُوجَّه للنساء أيضاً، ولأنها كانت سعيدةً بشكلٍ خاص بالهاتف.

تصف إنجازات يومها كطفلة، تريد بجلاء إبهار من في طرف الخط وإثارة إعجابه.

لاحظتُ بهلع: كانت لعينيها (لمن يعرف لغة عينيها مثلي) لمعةٌ غراميَّةٌ عميقة!

غير أن نهاية المكالمة كانت متوتّرةً نسبيّاً. قالت هاوية:

"لا أستطيع قولها الآن! سنتواصل بالهاتف لاحقاً حبيبي!"، قبل أن تنتهي المكالمة!

– تحتاجين الآن إلى مكتب سكرتيرات لإنجاز مهامك والردِّ على الرسائلِ والاتصالات، حبيبتي!؛ قلت لهاوية.

– ما يحكُّ لك إلا ظفرك في هذه البلاد، حبيبي!

– تحتاجين أيضاً إلى فرقة حرّاس!

– لا يأمن أحدٌ أحداً (حتّى الحرس) في هذه البلاد، حبيبي!

– ستأتي إذن قريباً للعَيش معي في باريس، حيث الأمان والهدوء والسعادة؟

لم تعلِّق، كنت كمن يرطن بلغةٍ أجنبيّة!

– يلزمني حبيبي أن أغادرك سريعاً الآن، بسبب مواعيد هامة جدّاً تنتظرني في الساحة. سنلتقي غداً!

تغادر الشقّة بحجابٍ ثالثٍ يختلف عن الذي خرجت به من الحافلة، والذي وصلت به إلى شقّتي: لا هو رثّ ولا أنيقٌ جذّاب؛ أقرب إلى "المنزلة بين المنزلتين"، حسب التعبير المعتزلي (الكلامي).

تأخذ أوّل حافلة تمر. ستصلها سيّارةٌ خاصّةٌ لتنقلها إلى ساحة التغيير، بعد أن تتوقّفً في محطّة ما...

لم تكن "جمعة الغضب" بالنسبة لي، حبيبي سارق الأرواح، إلا "جمعة الرضى والبهجة"؛ جمعة اللذة والعشق والدهشة والثورة الحقيقية؛ جمعة الحلم والرومانسية والحياة...

المجد للثورات، المجد للغضب!

المجد للحياة!...

# الفصل الثامن عشر

منشور من حائط فيسبوك الصديق م. غ.:

مدينة صغيرة، بداخلها جيش، شرطة، مواطنون، جامعة، أسواق، محاكم، مدارس، شوارع، محطات وقود، مطاعم شعبية، عشاق صغار، شعراء مغمورون، متصوفون زاهدون، تجمعات لسائقي البيجو في المساء، كهول حكّاؤون، أطفال حفاة وأمهات مصابات بالربو، عمال يأوبون من مصانع الإسمنت عند الغسق، مدرّس للقرآن ذو مظهر كنعاني قديم، وبائع جرائد يفقد كل يوم نسخة من جريدة أو عشر نسخ.

في الخارج، خارج أسوار هذه المدينة، قوة عمياء، مغمورة بالسلاح، تحوم حول مداخل المدينة مثل محاربي الفايكنغ، على شفاهها شهوةٌ متوحشة، تتجمع بالآلاف ثم تتلاشى في طرفة عين، لا تعرف هذه القوة ماذا تريد بالبارود لكنها تستخدمه بوحشية، لا شيء خلف تلك القوة سوى رماد حار لحرائق أشعلوها البارحة، لا ينام مقاتلوها فهم يحملون شعلات ملتهبة مصوّبة في اتجاه المدينة. على بعد عشرات الأميال ثمة من يتبرع بشرح أهدافها السامية التي تبنيها بالنار، وترفعها على قرون الوحوش المغروسة في جباه مقاتليها.

هذا المشهد القادم من ما قبل ما قبل ما قبل الحضارة والكتابة يمكن مشاهدته في عمران.

*********

أصحو في اليوم الثاني مبكِّراً مشتاقاً لساحة التغيير. أهرع نحو الحمّام لأغتسل. "دوش"[1] الصباح بالنسبة لي أقدس لحظات النهار وأكثرها حميمية. لا أستطيع بدء اليوم بدونه: أحتاج إلى ماءٍ ساخنٍ فوق جمجمتي يوقظ عصبونات دماغي. لا تتحرّك دورتي الدموية قبل أن يلاعب ويدغدغ ويغمر جسدي سيلٌ من ماءٍ مكتظٍّ دافئٍ زُلال. لا يستطيع دماغي ترتيب نفسه والدخول في رقصة باليه اليوم الجديد قبل ذلك...

لا أنسى المرّة الوحيدة التي خرجت فيها من بيتي في باريس، دون دوش الصباح لأني استيقظت متأخِّراً وكدت أفقد موعد عملٍ هام: في الثانية عشرة ظهراً من ذلك اليوم شعرت بالدوخة والضيق وصعوبة التنفّس. اضطررت للعودة إلى المنزل لممارسة طقوسي المائية الحميمة السعيدة تحت الدوش، قبل العودة إلى المكتب ومواصلة قضاء بقية اليوم بشكلٍ طبيعي!...

الحنفيّة فارغةٌ تماماً من الماء، مثل الكهرباء التي انقطعت عدّة ساعات من الليل تقريباً.

قناة الجزيرة التي تصلني إلى الحمّام تقول: "بدأت قوات أمن

١ الدوش: مرشّة، منضحة الماء.

العائلة الحاكمة بعد صلاة الفجر اعتداءً على المعتصمين في ساحة التغيير بصنعاء".

ثمَّ توجِّه نداء استغاثةٍ من شباب الساحة إلى الشعب للهروع نحو الساحة والدفاع عنها!

أصغي بهلع للتقارير: حاول الحرس الرئاسي و"بلاطجة الصالح"[١]، منذ الفجر، اقتحام ساحة التغيير وضرب معتصميه بمسيلات الدموع وأنواع غريبة من الغازات السامّة!

أخرج من الحمام الذي لم أغتسل فيه، لاهثاً نحو الساحة، محتفظاً برائحة ثائرةٍ فاتنةٍ (رائحتها عطر العطر) ترقص منذ البارحة على جسدي.

جسدي الذي تكسو قضيبَه السعيد آثارُ قاتها منذ البارحة.

قاتها الذي يعطِّره رضابها المقدَّس.

رضابها الذي تحوَّل جسدي بفضله هوائيّاً، لدُنيّاً، جسدَ إله!...

مقابلةٌ سريعةٌ مع هاوية في قناة العربيّة.

لم أهتم بالمقابلة، لكنها طمأنتني: سعدت أن هاويتي لم تتعرّض لأذى!

أرتدي ثيابي بسرعة وأنا أصغي للقناة وهي تتحدّث عن مسيراتٍ شعبيّة اندلعت في كل أرجاء اليمن تضامناً مع ضحايا ساحة التغيير.

أردِّد بيني وبيني بياناتي الثوريّة التقليدية التي تصيغها ما تبقّى من مكاتب الدعاية والتحريض الماركسية اللينينية في دماغي:

---

١ أُطلقت هذه التسمية على "بلاطجة" النظام، على غرار تسمية "جامع الصالح" لجامعٍ حديثٍ تمَّ بناؤه مؤخراً بمبالغ خياليّة، في قلب عاصمة بلدٍ جائع.

"عدن وصنعاء هكذا قلبٌ واحد، رغم أنف الطاغية الذي أحيا الطائفيةَ والتمييزَ ليستمر حكمه".

أقول لنفسي بثقةٍ وبراءة: "كلُّ اليمن متّحدةٌ اليوم أكثر من أي وقتٍ مضى ضد الأسرة الحاكمة وعصابتها الكبرى. ساحات الحريّة والتغيير متناثرة في كلِّ المدن. سيبدأ أخيراً، بعد سقوط العصابة الكبرى، اليمن الجديد الذي طالما حلمت به!"...

(لو سمعني الخضر الذماري الذي قابلته البارحة في الساحة لانفجر ضاحكاً مثلما انفجر الأستاذ مسؤول المنح الدراسية في عدن السبعينيات، عندما قلت له، في مقهىً في ميناء صِيرة، إنني أفضِّل المنحة إلى فرنسا لرؤية غروب الرأسمالية بأمِّ عينيّ، قبل قضاء ما تبقّى لي من العمر في بناء الاشتراكية!).

كان جليّاً أنّ ما أسماه "ثعبان اليمن" "أنفلونزا الجيران الذي أصاب اليمن" وباءٌ كاسحٌ لا علاج له: وباء الحرية، الكرامة، إسقاط نظام التجويع والاستبداد وإرادة حياةٍ مدنيّة أخرى.

كان ذلك جليّاً، بشكلٍ خاص في عينيّ اللتين تريان الثورة في كلِّ مكان وإن لم توجد مقوّماتها الحقيقية بعد، وتريانها أيضاً تنطُّ سنةً ضوئيّةً نحو المستقبل حتّى وإن رابطتْ في نفس الموقع معيدةً توزيع السلطة بين نفس العصابات، أو مهرولةً بصراحة نحو هاويةٍ بلا قاع، نحو مزيدٍ من الخراب.

ما إن اقتربتُ من ساحة التغيير من الجهة الجنوبية حتى اندمجت بجموع جاءت من كل حدب وصوب لدعم الثوار والاعتصام في الساحة. لم يكن ذلك سهلاً: عياراتٌ ناريّة من الحرس الخاص

والأمن الرئاسي تمنع المغامرين من الاقتراب منها.

بلاطجة النظام يرموننا بالحجارة، وقنّاصةٌ يفاجئون الجميع هنا أو هناك.

نحاول الاحتماء بالشوارع الخلفية لنجد أنفسنا أمام بلاطجةٍ يرجموننا بالحجارة من جديد!...

خوفٌ أزرق. قلبي يرتجف من الهلع. اعتدتُ عشق الثورات وتخيّل سيناريوهاتها مهرجانات ممتعةً كما تبهجني، لكني لم أتخيّل الموت فيها قط، رغم أنه وليُّ الأمر وسيّد اللعبة.

تواصلت محاولات كرِّنا وفرِّنا طوال النهار، في مساحةٍ تمتدُّ من المركز الصحّي الإيراني إلى جولة كانتاكي.

سقط أمامي عشراتٌ ممّن لا يستطيعون الركض السريع أو لديهم ضيق تنفّس.

زاد تعقيدَ الأمور وجودُ بلاطجةٍ مندسّين بيننا، وكثرةُ القناصة فوق السطوح كلّما اقتربنا من الساحة...

وصلتُ الكومونة قبيل منتصف النهار. لن أنسى منظرها:

جموعٌ غفيرة تنهمر عليها من كلِّ فجٍّ عميق، أغانٍ ثوريّة، احتفالات في كل مكان... كلُّ ذلك بشكلٍ موازٍ ومنظّم (في مدينةٍ لم تعرف النظام يوماً) مع سيّارات إسعاف تشقُّ طريقها لتنقل المصابين والجرحى إلى الخيام الطبيّة والمستشفى الميداني.

حماسٌ وإرادةٌ تتضاعف. تعاطفٌ شعبيٌّ مع الثورة يزداد بجلاء. عائلاتٌ كاملةٌ عديدة جاءت رجالاً ونساءً وأطفالاً لتعتصم في الساحة...

ثورةٌ حقيقيّة!

لتعدْ إلى الحياة كلُّ أحلامنا التي اندثرت!

المجد للثورة!...

أتجوّل حقّاً في أحضان ثورة. ازداد غلوّي وأنا أجزم لأحدهم أن كل ما عرفناه في اليمنِ قبل هذه الثورة لم يكن غير انقلابات عسكرية تقليدية، أُسميتْ خطأً: ثورات!

أجزم لك حبيبي هادم المسّرات ومفرِّق الجماعات: منعتُ أدمعي (ودموع نجاة!) أكثر من مرّة من الانهمار أمام الملأ، من فرط سعادتي وأنا أرى تضامن الناس وتلويحهم بصور "شهداء الثورة".

يكفي في الواقع أن أرى الناس تتحرّر من قيودها وتنزل إلى الشارع متكاتفةً، لتغمرني السعادة غالباً، وإن لم أدرِ ماذا يريد هذا الخليط البشريُّ بالضبط، وأين سيذهب، أو هل يريدُ أن يريدَ على الأقل!...

أستظلُّ من لظى الشمس في خيمةٍ لرجالٍ من قبيلةٍ مجاورة لصنعاء. تلفازٌ صغيرٌ في أسفل الخيمة ينقلُ الأخبار من قناةِ الجزيرة. بعض رجال القبائل يقيمون صلاة الظهر وآخرون يتابعون القناة. أحدهم يرينا بقايا طلقات رصاص مرتزقة النظام، شظايا قنابلهم وعلب غازاتهم السامّة...

أصوِّر كل شيء بتلفوني. أتحدّث مع هذا وذاك.

نصغي معاً لقناة الجزيرة: ينكر الناطق الرسمي للنظام وجود اعتداء على الساحة!

"كل هذه الدماء ماكياج من شراب الفيمتو الأرجواني الأحمر، لا

غير" قالها دون خجل، وأكّدها طبيبٌ رسميٌّ موالٍ له!

ليس للحقارة البشريّة حدود، كما يبدو!

نصغي لشهادات شباب الساحة، الذين واجهوا مرتزقة النظام، يصفون كيف منع الأمن سكّان المدينة الجامعية من الدخول والخروج، وسمح للبلاطجة عند الفجر بإطلاق الرصاص ومسيّلات الدموع على الخيام، والهروب بعدئذٍ من سور الجامعة الذي يتاخم الساحة.

المذهل: ثمّة ثلاث نساء مدنيّات في الخيمة هنا معنا. لم يتضايق أحدٌ من شباب القبائل من تواجدهن في نفس الخيمة. ثمّة جديدٌ ولد اليوم من بين صُلبِ وترائبِ الكفاح والقصف.

كيف لهم أن يتضايقوا ومن انتشر أوّل من انتشر في الخيام لإنقاذ الجرحى هنّ ممرضات ساحة التغيير؟

(انتشرن في كلِّ مكانٍ "كالنسائم، كعصافير الجنّة"، كما يقول أحد شباب القبائل!).

كيف لهم ذلك وأوّل من حمل الطعام للجموع القادمة لدعم الساحة فتياتُ وأمّهاتُ مساكن الأحياء المجاورة للساحة؟

ثمّة شيءٌ يولد لأوَّل مرّة: علاقاتٌ جديدة، مبادئُ جديدة، إنسانٌ آخر!...

أكتشف بعد برهةٍ صغيرة أنني أضعت تلفوني في معمعة "ربشة" الخيمة.

تلخبطت واضطربت كثيراً لأن فيه كلَّ أرقام أهلي وأصدقائي ومعارفي، بما فيها رقم بيت أختي سميّة ورقم الفندق، اللذان لا

أحفظهما عن ظهر قلب. ولأن كلّ ما أضعته طوال حياتي في اليمن انسرق إلى الأبد!

قرأت على تلفوني الفاتحة بأسىً وقرفٍ شديدين. اعتبرته أضحيةً لإله الثورات!...

ثمّ حصل جديدٌ لم أعرفه يوماً في اليمن: بعد نصف ساعةٍ من ضياعه وفقد الأمل في العثور عليه، وصلني قبيليٌّ (وسيمٌ جدّاً) مهندمٌ بشكلٍ نظيف، شديد الأناقة، ليتحدّث معي بلغةٍ مهذَّبة:

- سمعنا يا أستاذ أنَّكم أضعتم تلفونكم؟

- نعم!

- ما ماركته؟

- آيفون.

- وجدناه قرب الباب، لعلَّه سقط منكم هناك.

- مليون شكر!

ثم استفسرت منه:

- أتسمح لي أن أسألك: من أي منطقةٍ في اليمن أنت؟

- من مدينة عمران، قبيلة حاشد!

مدينةٌ تحمل اسمي، في محافظةٍ تحمل اسمي، قرب صنعاء! ومن نفس قبيلة الحاكم وكلّ الرؤوس القبلية الحمراء التي استنزفت اليمن ونهبت جنوبه بعد حرب ١٩٩٤ (عليهم جميعاً لعنة الحضارة والتاريخ إلى يوم الدِّين)!

ثمّة شيءٌ جديدٌ يتجاوزني: عالَمٌ أنيقٌ محترمٌ جدّاً هذا الذي تصنعه ثوراتٌ كهذه تُخرج الحيَّ من الميت وتُخرج الميّت من الحيّ!

ثمّ تذكّرت الفيلسوف الذماريّ، مكوّر البطن، الذي قال لي البارحة: هؤلاء ورثوا خبثَ آبائهم، لا تصدّقهم: "تجمهرَ" آباؤهم في الصباح مع الجمهوريين، أثناء حصار صنعاء، و"تَمَيْلكَ" مع الملكيين في المساء!

عبارة: "لا تصدِّقهم!" تحاصرني، تطاردني، تستفزُّني، تحاكمني أكثر فأكثر!...

سمعتُ في الخيمة أن القبائل المحيطة بصنعاء قرّرت المجيء لحراسة الساحة من أي اعتداءٍ آخر يقوم به النظام!

بدأت أقلق: تحويل الثورة إلى حربٍ مسلّحةٍ على غرار ما يجري في ليبيا سيكسر كوعها ويجعل القبائل وحدها، ومن والاها من العسكر، تقطف ثمارها.

ستسيل الثورة من بين أصابع شباب الساحات، وتعود السلطة لصيغة توازنٍ جديدٍ مؤلّفةٍ من قوى نفس العصابة الحاكمة مرّةً أخرى...

عاد إلي طيف القذّافي وكوابيس عسكرة الثورة الليبية من جديد! تذكَّرت الخسائر الشخصية الفادحة التي سبّبها لي قصفه لشارع طرابلس بمصراته، والديون التي على ملك ملوك أفريقيا تسديدها لي يوم البعث والنشور...

لماذا خطر ببالي دخول العسكر على الخط؟ لا أدري!

لم أكن مخطئاً البتة، لأن قناة الجزيرة نقلت بعد قليل لقاءً مباشراً مع عدوّي اللدود، "طبيني"، الإمام الهمداني (الذي صار أقبح من أي وقتٍ مضى!)، من مقرِّ هروبه في المملكة، يدين فيه قوات

الأمن والجيش وهي "تسفك دماء المسلمين" في الساحة، ويدعو "المسلمين المخلصين في الجيش والأمن" إلى التمرّد على الحاكم والالتحاق بساحة التغيير لحمايتها من عسكر الأسرة الحاكمة!

أي: نداءٌ مباشر لعسكرة الثورة السلميّة، وتحويلها إلى حربٍ قادمةٍ بين شطري جيش منقسم!

بدأت أقلق فعلاً: بعضٌ من قادة العسكر جاؤوا إلى الساحة اليوم، بعد الظهيرة خصوصاً، ليعلنوا تضامنهم مع الثورة، واستعدادهم للدفاع العسكريِّ عنها.

نقلت قناة الجزيرة تصريحاتهم أوّلاً بأوّل، من ساحة التغيير مباشرةً.

الساعة تقترب من الرابعة عصراً.

اقترب موعدُ بروفات الفردوس، وإن لم أتوقّع أن تصل إلى الشقّة هاويتي الخالدة، ملكة الساحة، في هذا اليوم الاستثنائي جدّاً.

قبل عودتي إلى الشقّة، توقّفتُ أمام خيمةٍ تعيد عرض أفلام المحاضرات التي أُلقيت في الساحة.

كانت تعرض حينها محاضرة الشيخ الزنداني، رئيس "جامعة الإيمان"، وصاحب "براءة الاختراع" لعلاج مرض الإيدز بالإعجاز القرآني، وصاحب شريط تسجيل أصوات عذاب القبر، الذي جاء يلقي محاضرةَ تأييدٍ للثورة في المنصّة الرسميّة للساحة!...

نعم، صديقي قابض الأرواح: الظلاميُّ الأشهر من نارٍ على علَم جاء هنا يناصر نفس هذه الثورة التي أناصرها!

(أسمع صديقي الغالي لاطش الأرواح يقهقه بخفّة، مهامساً

نفسه: معادلة بلا حل!)

يقول في محاضرته: إن هذه الثورة تستحق "براءة اختراع"!

هاتان الكلمتان من فمه لا تبشِّران بخير. أي إن هذه الثورة، هي الأخرى، مثل علاجه للإيدز: شعوذة!

كدت أتفجَّر غضباً: عندما تستدعي منصّة ساحةِ ثوّارٍ ظلاميّاً كهذا، فهي تقرأ على نفسها الفاتحة.

قلت لنفسي: ثمّة من يريدني أن أكره كلمة "ثورة" إلى الأبد، أنا الذي أعتبرها أنبل وأحلى وأقدس كلمات القاموس، بجانب كلمتين تستحوذانني أيّما استحواذ: "عشق" و"نجاة"!

هربت من هذه الهلوسة والدسائس، التي تستحقّ "براءة اختراع"، إلى الشقّة.

وصلت هاوية كعادتها (التوحُّد الجسدي عند السلفيّات فريضةٌ دينيّة. لعلّها إيجابيّتهنّ الوحيدة ربّما!).

تقدِّس فعلاً هذه المواعيد، كما تقدِّس هذه الثورة، كما تقدِّسني، كما تقدِّس الإمام الهمداني. (كان الأحرى بها أن تبحث عن دينٍ بثلاثة أو أربعة آلهة!).

دموعٌ كثيرة على "شهداء" اليوم. بعضهم من فدائييها المقرَّبين. بكت حبيبتي عليهم كثيراً، حال رؤيتي. بكت بسخاء، وبكيت أيضاً رغم أني متأكِّدٌ أنّ بعضهم كان يشتمني ببذاءة عند كلِّ منشورٍ مَدَنيٍّ أكتبه في منشورات حائطي في الفيسبوك...

الليل مثخنٌ بالرصاص. خوفٌ وقلق. عشقٌ مقتضبٌ مكثَّف على ضوء الشموع هذه المرّة، وعلى إيقاع لعلعة قذائف مدفعيّة في أجزاء

متباعدةٍ من صنعاء (التي صرت أحبُّها أكثر فأكثر). ثمّ بدأنا جلسات ما بعد العشق بالحديث عن آلام هذا اليوم التاريخي وتفاصيله.

لم يتوقّف هاتفا معشوقتي الاثنان عن الرنين، ولم تتوقّف النُصيصات الهاتفيّة عن الانهمار عليهما معاً (ساحة التغيير، كلُّ اليمن، وكلُّ الكرة الأرضية في اتّصال دائم معها).

تردُّ على هذا أو ذاك، بين قُبلتين. تعشقني بين إيميلين. تتحرّر من كل قيودها وتتنقّل راقصةً فخورةً بنبل جسدها، عاريةً كحوريات الجنَّة، من ركنٍ في الغرفة إلى ركن، وهي تردُّ على تعليقٍ أو رسالة، بين قُبَلٍ خفيفة!

ثورةٌ وسحر!...

ثمّ أثارتني من جديد إحدى مكالماتها عندما لاحظتُ أنها خفّضت صوتها كالبارحة. انزوت في طرف الغرفة من جديد. ثمّ نفس لمعة العينين أثناء مكالمة البارحة؛ نفس "يحفظكْ الله ويرعاكْ حبيبي!" بنفس تسكين الكافين الذي استفزّني مجدّداً، ونفس انهمار "حبيبي" في كلِّ جملةٍ تقريباً...

ركّزت راداراتي من جديد على نغمات صوتها ولمعة عينيها، وهي تهامس من في طرف الخطّ، خافضةً نبراتها أثناء هذه المكالمة بالذات.

لاحظت أنهما تحدّثا أيضاً عن مقابلة قناة الجزيرة مع الإمام الهمداني التي سمعتُها قبل مغادرة ساحة التغيير. أبدتْ إعجابها بالمقابلة، لم أتصوَّر ذلك!

انشدادٌ مكهرب!

أحملق، رغم ضوء الشموع الخافت، في قسمات جسدٍ عارٍ رهيف، باذخ الرشاقة، واقفٍ في ركن الغرفة كي لا ألتقط همهماته.

أصوِّب على نبراتها كلَّ ما في دماغي من عصبونات (بين ٨٦ مليار و ١٠٠ مليار عصبون).

ألاحظ: نفس الربشة والاضطراب أثناء اختتام المكالمة، وهي تدحرج: "لا يمكنني أن أقولها الآن، سنتواصل لاحقاً"!...

تذكّرتُ ما قالته لي يوماً عن طقوس عباراتهما الأخيرة قبل انتهاء مكالماتهما الهاتفيّة اليوميّة، حيث تردِّد ثلاث مرّات: "وأنت كذلك عشقي الأوحد، حفظكَ الله ورعاك!" بعد جملته الختاميّة التي يبدأ بها ثلاث مرات: "أحبّكِ لله وفي الله ولا أحبّ غيرك عشقي الأوحد، قلبي وقالبي، أمَةَ الرحمن!".

يحبّ هؤلاء المجاذيب ترديد كلَّ شيءٍ ثلاث مرّاتٍ دائماً، على سنّة الله ورسوله، لاسيّما فجورَهم الفاحش!...

أيقنتُ أنّ في نهاية الخطّ: الإمام الهمداني نفسه!

غيرةُ نمِر، ألفِ نمِر، تشتعلُ في كلِّ كياني. ثورةٌ في رأسي تتفجّر داخل ثورة على حين غرّة. يغلي دماغي ويصل إلى "درجته المائة" (التراكمات الكميّة تؤدّي إلى تغييرٍ نوعي!). يقشعرُّ بدني، تختنق عباراتي:

– من هذا الذي تحدّثتِ معه؟

– الإمام الهمداني!

– ما زلتِ تحبّينه إذن؟

– لماذا تقول ذلك؟؛ سألتْ بقلقٍ ولعثمة.

– لمعة عينيكِ وعدد كلمات "حبيبي" التي ظننت أني الوحيد من يستحقّ انهمار تواترها بهذه الكثافة عليه!

– لا أتذكّر أني استخدمت "حبيبي" مرّةً واحدة في المكالمة!

– ذلك أسوأ: عندما تأتي "حبيبي" من اللاوعي، بهذه الكثافة والانهمار، فهي أكثر عمقاً وصدقاً وتعبيرية وخطورة! ما زلتِ تحبّينه إذن؟

– نعم، هو حبٌّ أبديٌّ كما قلت لك!

– لماذا لم تقطعي علاقتكما الغرامية؟

– إيش أسوّي؟ مارضاش!

ثمّ قالت بغضبٍ مكبوت كشفه بجلاء تشنّجٌ نادرٌ في الجفنين:

– ألم أقل لك مائة مرّة: إذا تحدّثتَ عن هذا الاسم مرّةً أخرى فسأغادرك نهائيّاً ودون رجعة؟

صمتٌ جنائزي!

لم أعرف كيف استرسل...

بلاوعي سألتها:

– ألا يخيفكِ انقسام الجيش بعد حديثه في قناة الجزيرة، ودخول جزءٍ منه إلى ساحة التغيير، ومن ثمَّ الهيمنة على الثورة!

– لا بالعكس!... حيّا بهم، حيّا بهم!...

# الفصل التاسع عشر

منشور من حائطي في الفيسبوك:

لكلٍّ من عاشر ساحةَ التغيير لحظةٌ محدَّدةٌ ابتسمَ فيها لآخر مرة.

للكثيرين: صباح ١٨ مارس ٢٠١١، "جمعة الكرامة":

تكرارٌ لبروفة مجزرة فجر ١٢ مارس الصغيرة، بحجمٍ تراجيديٍّ تجاوز كلَّ التوقّعات.

احتلّ القنّاصة والعسكر بسرِّيةٍ تامّة سطوح كل العمارات المحيطة بالساحة قبيل الفجر. الهدف: تصفية الساحة عن بكرة أبيها وإبادة من لا يغادرها من المعتصمين.

النتيجة: عشرات القتلى ومئات الجرحى، في سويعات. سيل دماء.

لحظةٌ مفصليّة في تاريخ الثورة: هناك ما قبل جمعة الكرامة، وهناك ما بعدها...

منشور من حائطي في الفيسبوك:

بدأتْ إثر "جمعة الكرامة" لعبةٌ طويلةٌ، طويلةٌ جدّاً لم تتوقّف حتّى اللحظة:

بعد ثلاثة أيّام من مجازرها انشقّ الجنرال الكبير، توأم رئيس العصابة الحاكمة (ذو العلاقة القويّة الدائمة بالسلفيين) مع فرقته العسكرية عن جيش رئيس العصابة، ليلتحق بالثوار ويحمي الساحة!

تحوّل الجنرال إلى ثائر! رحّب بانشقاقه معظم "الثوار"، واستقبلوا قادة فرقته يحملونهم على الأكتاف، مردِّدين: "حيّا بهم! حيّا بهم!"...

لحقهُ عددٌ ضخمٌ من كبار رموز النظام السابق، وأشدِّ المدافعين عن العصابة الحاكمة وأسفلهم بامتياز، ليصيروا جزءاً من الثورة: حيّا بهم، حيّا بهم!

ثمّ قادتَها بعد ذلك: حيّا بهم، حيّا بهم!...

بين تلك الجمعة واليوم معزوفةُ تنويمٍ مغناطيسيٍّ تقليديّة لشعبٍ نُهبت ثورته:

مبادرة دول الخليج "لامتصاص الأزمة اليمنية".

قانون حصانة المخلوع وعائلته وكلِّ رموز حكمه.

جامعة دينية ثالثة: جامعة القرآن، بجانب جامعتين سلفيّتين سابقتين تُخرِّجان ظلاميين وإرهابيين (أي: خطوتان إلى الوراء وخطوة إلى الخلف!... صباح الورد فلاديمير إيليتش أوليانوف لينين!).

مؤتمر الحوار الوطني (مسرحية منافقة دامت ١١ شهراً في فندق ٥ نجوم، بين ٦٠٠ متحاور يستلمون أجورهم اليوميّة بالدولار).

وأخيراً: "لا صوت يعلو فوق صوت مخرجات مؤتمر الحوار الوطني" على أنغام "لا صوت يعلو فوق صوت الحزب" في

سبعينيات عدن!

كدت أنسى: الجنرال الكبير توأم المخلوع، نصف الأميّ، الذي تحوّل إلى ثائر بعد "جمعة الكرامة" بثلاثة أيّام، صار رئيس "جمعيّة العباقرة والمخترعين اليمنيين"!

حيّا بهم، حيًّا بهم!...

خلاصة المسرحيّة:

مقاليد الحكم والقيادة، أكثر من أي وقتٍ مضى، بيد توازنٍ جديدٍ لنفس العصابات القديمة.

اليمن بلدٌ تحكمه وتوجِّهه مومياءات كانت على رأس السلطة عندما كنت في سنِّ المراهقة، وأصبحتْ اليوم، بعد أكثر من أربعة عقود، طلائع المستقبل!...

النتيجة:

تُواصل "بلاد الإيمان والحكمة" هرولتها نحو هاويةٍ بلا قاع: فقر، فساد، نهب، تجويع، تعليمٌ ظلاميٌّ متخلِّفٌ خطير، اغتيالات، فوضى، حروبٌ طائفيّة، موتٌ يوميٌّ بأرقام تجاريّة، زواج قاصرات، وحضورٌ استثنائيٌّ مكثّف لتنظيم القاعدة والجهاديّين، وكأنّ الإمارات القندهاريّة الإسلاميّة هي أعلى مراحل "الثورة الوطنيّة الديمقراطيّة" (صباح الفلِّ مجدداً فلاديمير إيليتش أوليانوف!).

باي باي عصر الكهرباء والتكنولوجيا والمدنيّة والإنسان الحديث!

باي باي بوارق الأمل!...

منشور من حائطي في الفيسبوك:

ألوكُ مراراتي العربيّة دون توقّف.

دخلت سوريا على خطٍّ هذه المرارات من أوسع أبوابه.

ثورةٌ تفتح النفس أخيراً، على أحد أبشع الأنظمة الديكتاتوريّة التوريثيّة العربيّة.

ثورةٌ مغدورةٌ دخل على خطِّها نفس الجهاديين والظلاميين الذين دمّروا حياتي: سفكوا دم عشقي الأول، وسمّموا دماغ عشقي الثاني.

تجرَّأوا على قطع عنق التمثال الوحيد لعظيمي الخالد في عقر داره بالمعرّة: أبي العلاء المعرّي، أنا الذي تمنّيت دوماً أن يكون له قبل مماتي ألف تمثال!

ثورةٌ تترنّح وتنزف بغزارة، منذ سنوات. مصنع جثث. تحوّل بفضلها القذافي (بكلِّ جرائمه وهمجيّته) إلى غاندي مقارنةً بوحشيّة بشّار الأسد (الذي لا تنقصه إلا جائزة نوبل في الكيمياء وهندسة البراميل!).

منشور من حائطي في الفيسبوك:

لم ينجُ بن لادن الذي قال: "لا نجوت إن نجا الحزب الاشتراكي اليمني".

ولم ينجُ الحزب الاشتراكي اليمني، هو الآخر!

لا ينتصر في هذه الحياة (حتّى وإن كان جشعاً مجرماً لا يرحم) إلا من يصنع "طيور أبابيل" العصر الحديث: الأقمار الصناعية، الطائرات بدون طيّار.

أما من يكتفي بترديد أقاصيص و"حزاوي" طيور الأبابيل وهي تهبط من السماء السادسة، فسينهي غالباً حياته في الأقبية والكهوف، والمجاري أحياناً!...

*********

لكلٍّ من عاشرَ ساحة التغيير لحظةٌ محدَّدةٌ ابتسمَ فيها لآخر مرة.

بالنسبة لي، آخر لحظةٍ ابتسمت فيها كانت قبل "جمعة الكرامة" بستة أيّام:

مساء ١٢ مارس؛

في الشقّة؛

في لحظةٍ صمّاء داكنة؛

في زقاقٍ مظلمٍ نتنٍ تتضاجع فيه رباعية: الجنس الدّين السلطة الثورة؛

بين "إيش أسوّي، ما رضاش؟" و"حيّا بهم، حيّا بهم" التي كانت تُعدُّها هاوية والإمام الهمداني لاستقبال عسكر عصابة الحاكم المتوقَّع انشقاقُهم عنه، والتحاقُهم بالثورة، بعد دعوة الإمام الهمداني لهم بذلك.

انكسر شيءٌ ما في وجداني بعد ذلك الحوار، انكسر إلى الأبد. ببطءٍ في البدء، ثمّ بشكلٍ نهائيٍّ حاسم.

كان ذلك اليوم أيضاً (صدفةٌ غريبةٌ جدّاً لا أدري مدى أهميّتها): عيد ميلاد نجاة، ١٢ مارس!

أعيد ترتيب تواريخ سردتُها لك، عزيزي الغالي عزرائيل:

قبل عشرين سنة بالضبط من لحظة سماع هاوية تقول: "إيش أسوِّي، ما رضاش؟" و"حيّا بهم، حيّا بهم!"، كنتُ مع نجاة في شرفة مطعم في سيناء.

وقبل ثلاًثين عاماً بالضبط، في شرفة مطعم في جزيرة كورسيكا.

وقبل ١٦ سنة بالضبط، قبيل رحيلها بأشهر، كنّا نحتفل بعيد ميلادها الأخير أمام البحر، في جزيرة عمران بعدن...

في مرآة هذه الأيام الكريستالية الخالدة (التي أضحى استحضارها في ذاكرتي هوساً يوميّاً، بعد حوار ١٢ مارس ٢٠١١ بالذات)، أدركُ أن هذا الحوار الأخير مستنقعٌ بلا قاع، ما أسعدَ الهروب منه!...

غادرتُ صباح اليوم التالي باتّجاه عدن. أشعرتُ بذلك أختي الدكتورة سميّة (التي ستُشعر بدورها هاوية، كما أتوقّع).

لا يهم!

أسبوعٌ في عدَن مع البحر فقط، في فندق "جولد مور". عبرتُ متجوِّلاً لوحدي أعالي الجبال المجاورة، حتّى قمّة جبل شمسان الذي تضطجع في جوانبه المدينة. استعدت ذكريات رحلاتي الجبليّة مع نجاة، كلَّ ما كنّا نقوله ونحن نحدِّق في جَمال أرخبيلِ جزرٍ يحيط بنا من كلِّ الجهات.

ما زالت أصداء شهقات دهشاتنا من سحر وفتنة هذه المناظر ترقص في أذني إلى الآن!

تأمّلٌ طويل، عزلةٌ حميدةٌ مباركة!...

استحضرتُ عدنَ طفولتي التي امتلأتْ (عندما كانت أحد أهمِّ

موانئ العالم) بالهنود والأفارقة والأوربيين وببشرٍ طيبين من كلِّ أرجاء اليمن. مدينة سفنٍ وبحّارةٍ. حضنٌ لكل الهاربين من أوجاع الحياة.

تخرج من أسفل بحرها، كما تقول الأساطير، دهاليزُ تربطها بأقصى الشرق والغرب. مشروعُ عاصمة أمميّةً.

تمنّى الموت فيها، وهو في ساعاته الأخيرة، آرثور رامبو. هرع نحوها بول نيزان وهو في العشرين من العمر، ليعود بنصِّه الشهير "عدن العربيّة" الذي كتب سارتر مقدِّمةً طويلةً له...

رغم كلِّ أوجاعها وإخفاقاتها ظلّت بؤرة الأمل لكلِّ من أراد الهروب من تعاسة العالم واللجوء إلى الحلم. عاش فيها ولم يتوقّف حتّى اللحظة عن مناجاتها العاشقة سعدي يوسف. موضَعَها محمد الماغوط في النصف الأيسر من عليّين في ديوانه: **شرق عدَن، غرب الله.** رفرفَ فيها، غنّى لها وغنّى فيها وتوحّد بها محمود درويش وكلُّ من حمل بيارق الحريّة والثورة وحلم بعصرٍ عربيٍّ جديد...

تهجم عليها وتخنقها عصابات "عنف بالعنف" في فجر السبعينيات، تزلزلها وتسحقها في يناير ١٩٨٦. وتهجم عليها في ١٩٩٤ أبشع العصابات القبليّة والظلاميّة والجهاديّة لتنهبها ببشاعةٍ وحقد، وتمحق ما بقي فيها من مدنيّةٍ ورقّةٍ وأمل. تبطحها بالضربة القاضية.

أحاول، وكأني ألفظ آخر حسراتي، أن أُشبع عينَيّ بمنظر هذه الحسناء المفروشة بين جبال شمسان والبحر، بأرخبيلها الآسر، ومحميّاتها الطبيعيّة الساحرة؛ بأسراب طيور النحّام المهاجرة وهي ترقص على ضفّتَي طريقها البحريّ الطويل، تحت شمسٍ جبّارةٍ دافقة...

جمالٌ متأجِّج تغذّتْ منه خضاب دمي الحمراء (هيموجلوبيناتي)، تعيش عليه.

"جَمالُ المنظر يُطفئ جراحَه"، كما يقول شاعرٌ صينيّ.

أشعر أني أشبه عدن كثيراً. هي أنا، وأنا هي. لذلك لا أستطيع إلا أن أتنفَّسها في كل لحظةٍ وسكنة...

زيارةٌ لتوديع ميناء صيرة، وأخرى للشيخ عثمان، دار سعد، الممدارة، أطلال السيسبان... تساءلتُ كثيراً ماذا حدث للدكتورة دينا؟ من يستطيع أن يروي لي تاريخ حياتها بدءاً من يوم اختطافها وتحويلها غصباً عنها إلى بروليتاريّةٍ في "مصنع الفيوش للطماطم" وحتّى اللحظة؟ (أعرف أهمّ تفاصيلَ سيرتها قبل ذلك اليوم. باحتْ لي بها في جُمعِنا الثوريّة التي لم نساوم فيها قط!).

غادرتُ عدن بعد جمعة الكرامة بثلاثة أيّام، في ٢١ مارس.

عدت إلى باريس أجرجر ذكريات هزيمة، أحمل على كتفيّ "ماتريوشكا"[١] من الأكذوبات أثقل من كوعي...

كنت سعيداً كمن خرج من مستنقع، وحزيناً لفقد هاوية. حزيناً بشكلٍ لا نهائيٍّ في البداية، ثمّ أقلّ فأقلّ حزناً.

ثمّ لم أعد أسيرَ الحزنِ على حياتها ومصيرها: أمَة الرحمن سعيدةٌ هكذا بالتأكيد، من يدري!

لعلّي لم أكن أكثر من تجربةٍ عابرةٍ فريدةٍ بالنسبة لها،

حاجةٍ ماسّةٍ لتهدئة ضوضاء تناقضاتِ حياتها (بمزيدٍ من التناقضات)،

---

١ دمية روسيّة تحوي داخلها دمىً أصغر فأصغر حجماً.

وسيلةً للانتقام من أعباءَ ثقيلةٍ تجثم بكلكلها على القفص الصدري الرهيف لهذه الفتاة المسكينة!

من أنا، في الحقيقة، بالمقارنة بمشروع حياتها الكبير: "إعادة بناء دولة الخلافة التي تركها السلف الصالح أمانةً في أعناقنا"؟

أتابع من بعيد غرق الثورة اليمنية إثر مجزرة جمعة الكرامة:

ما حدث بعدها يشبه "مسرحيّةَ عرائس"، أبطالها "ملِك الذباب"، "جنرال الذباب"، "إمام الذباب"، و"العصفور الصغير" (الشباب الثائر):

يرتق ويجسِّد جنرال الذباب وإمام الذباب وحدتَهما العتيقة، ويتعاضدان في "ساحة التغيير". تتعادل الكفّة بين تحالفهما من ناحية، وملِك الذباب وعائلته من ناحيةٍ أخرى.

تنتهي كوميديا الثورة اليمنية بهذه النتيجة:

صفر مقابل صفر، بين ملِك الذباب من ناحية، وتحالف جنرال وإمام الذباب من ناحيةٍ أخرى.

لم يخسر الأوّل إلا نصف سلطته ولم يكسب الآخران إلا نصفها.

الخاسر هو العصفور الصغير الجميل، حلم الثورة اليمنية، الذي سقط على منقاره كعصفورٍ طار قبل موعده. سقط عموديّاً (حيّا به، حيّا به!) في مثلث بيرمودا ذي الرؤوس الثلاثة: شدق الملك، شدق الجنرال، وشدق الإمام.

أغلقت، حال عودتي من عدن، صفحتي في الفيسبوك إلى الأبد!

حياتي وصلت إلى مضيق. أشعر أني صرت ناضجاً للموت. أمارس شيخوختي بهدوء. أنتظرك، عزيزي كاسر الأحلام والمسرّات،

لأبوح لك بأوجاعي وأفجّر أمامك كلَّ هذه الأسئلة التي أتمنّى معرفة الإجابة عليها قبل أن أعطِّف حقائبي وأرحل في سفينةٍ حالكة الظلمة، أنت قبطانها الشهير. سفينة الموتى.

قبل ذلك، عليّ أن أصفِّي حسابي مع آخر أحلامي القديمة.

حلمٌ خفيفٌ عتيق راودني من وحي تراث هوسنا بمطاعم الدنيا، نجاة وأنا (كان يكفي أن نبدأ بتذكُّرها لنثرثر حولها بلا وعي ساعات وساعات. نتذكَّر تفاصيلها، ونتذكَّر، ونحن في المطاعم غالباً، تفاصيل تذكُّرنا لها... صارت لنا لغةٌ متميّزة وطقوسٌ خاصّة، عند الحديث عن المطاعم ووجباتها).

حقَّقتُ أخيراً هذا الحلم الصغير:

كنت في نهاية سبتمبر ٢٠١١ في شرفة مطعم باريسي، في ركن شارع في الحيِّ الرابع عشر، أمام محطّة مترو إليزيا. طلبت وجبةً في غايةٍ البساطة أراها لأوّل مرة: "شكشوكة بيض بالشوريزو، على طريقة رئيس المطبخ". للوجبة جذورٌ إسبانيَّةٌ كما يبدو.

العابرات والعابرون أمامي في ركن الشارع، في هذا المساء المفعم بالحياة والشهوات، يعيشون سعادة أبهج أيّام السَّنة، بعد متعة الصيف.

جمالٌ طافح، عشقٌ يتدفّق على الطرقات، قُبلٌ مشتعلة، أضواءٌ مشعشعة، رشاقةٌ راقصة تعصف بي، دوخةٌ ودوار، وهجٌ في كلِّ مكان، موسيقى، حياةٌ زاخرةٌ حتّى الموت...

آخر ما يمكن أن يخطر ببال هؤلاء المهووسين بالحريّة والحياة والعشقِ في الهواء الطلق هاتان المقولتان: "إيش أسوّي، ما رضاش؟"

و"حيّا بهم، حيّا بهم!" (لا أجد كلمات مناسبة للتعبير عن غثياني عند سماعهما).

أيقنت، وأنا أتمضمض الصحن لأوّل مرّة، أنّي تناولته يوماً ما في حياة سابقة!

تذوّقته في ذلك الجوِّ الخريفيِّ الباريسي، الخرافيِّ جدّاً، كما لو كان عشائي الأخير. (أقلقني فرط استلذاذي به، لم يكن طبيعيّاً!).

كتبت مقالاً قصيراً حميميّاً جدّاً، لمجلة أسبوعيّةٍ فرنسيّة، بعنوان "العشاء الأخير"، عن الصحن وأحاسيسي عند تناوله؛ عن المطعم وتفاصيل المكان وحركة الناس. يحوي النصُّ نقداً فنيّاً للطبخة؛ لديكور المطعم وموسيقاه، ووصفاً للنادل وتفاعلي معه. تأمّلاتٌ كونيّةٌ وميتافيزيقيّةٌ انسابت فيه هنا وهناك، بين اللقمة واللقمة...

نشرتْه المجلة. يبدو أنه لاقى إعجاباً لا بأس به. ارتفع ربما عدد زبائن المطعم. طلبت مني المجلة (انطلاقا من النتائج الطيِّبة للمقال) أن أحوِّله إلى عمودٍ أسبوعيٍّ بعنوان: "العشاء الأخير"، بنفس بنية المقال الأوّل وروحه. تتولّى هي الاتصال بأكثر من مطعم، لتوجيه دعواتٍ لي لأتناول ما أحبّ من وجباته مجاناً، وأكتب مقالي الأسبوعي شريطة أن "يلائمني المطعم بشدّة وأجد فيه ما يلهمني".

شغفٌ جديدٌ أمتعني، مارسته بمهنيّةٍ وشهوةٍ جديدةٍ خالصة.

كانت فرصتي الأسبوعية (مرّتين في بعض الأسابيع) لهيكلة

دماغي، لترتيب انكساراتي، لاستعادة ذكريات نجاة ومطاعمنا المشتركة، للتأمّل في هاوية حياتي، للصمت والعزلة المباركين، ولتطوير وإعداد باقة أسئلتي إليك، عزيزي الغالي ناهب الأرواح.

لعلّي، كما لاحظتَ، قد وجّهتُ منها حزمةً لا بأس بها، منذ أن بدأتُ بَوْحي لك بهذه العبارات:

"ما حصل لحياتي يتجاوزني تماماً. لم أستوعب منه شيئاً. سأكون محظوظاً وممتنّاً لو ساعدتني، عزيزي قابض الأرواح، على توضيح ذلك وفهمه، أنت الذي كشف لك الباري بالتأكيد أسرار البدايات وعرجنات المصائر".

كنت أحضِّر نفسي لتلك الأمسيات بشغفٍ غريبٍ جدّاً. أتناول سلسلةَ صحونِ المأدبة، في ركن المطعم، ببطءٍ ومهنيّة، خلال ساعتين أو ثلاث أحياناً. أحدِّق بصمت في المطعم، البشر، نظراتهم وثرثراتهم... وأتذكّر نجاة. أتخيّل ما كانت ستقول حول كلِّ تفاصيل ما أراه وأسمعه وأتذوّقه.

أكتب، في الحقيقة، ما تقوله، لا أكثر أو أقل!

تبعث لي بخواطرها من السماء السابعة والسبعين، سماء الأفكار. أجدها معي دوماً كلّما حملت قلماً أهدتني إيّاه ذات يوم. يكفي أن أمسك به لتهمس لي بكلِّ شيء، لتسيل كلماتها على الورقة، هي التي حوّلت حياتنا قصّةَ عشقِ أوراقٍ وأقلام.

في كلِّ عيد ميلاد كانت تغمرني بالهدايا. وبما تسمِّيه "هوامش الهدايا". (أموت غراماً بهوامش الهدايا أكثر من الهدايا أحياناً!).

أحد هذه الهوامش يأسرني بشكلٍ خاص: دفاتر من الورق

الفاخر، حبرٌ عبق الرائحة، وحزمةٌ من أقلام رصاص بعدد سنوات عمري.

في أوّل عيد ميلادٍ لي، ونحن نعيش معاً، أهدتني ٢١ قلم رصاص. وفي آخر عيد ميلاد سبق رحيلها أهدتني ٣٨ قلم رصاص. جميعها في منتهى الجمال، لا أدري أين وكيف تجدها.

بفضل الأقلام تعرَّفتُ (عندما استدعاني البوليس إلى محطّة سانت ميشيل) على نجاة بين أشلاءٍ مزَّقتها وأحرقتها العبوات الناسفة.

عندما ترى، عزيزي عزرائيل، ملكة ملكات الكون، ملكة جماله، إلهتك الصغيرة، كومةَ أشلاء ودمٍ مخلوطةٍ بقلم حبرٍ تكلّس تماماً (هديّة)، وبأقلام رصاصٍ متفحِّمةٍ وكتبٍ محروقة (هوامش الهديّة)، تفقد الحياة في منظورك كلّ معنىً وهدف، وتتحوّل كابوساً دائماً لا غير، محيطَ ظلمات.

تدرك فعلاً أن جزءاً من دماغك قد تعطّل كليّةً وإلى الأبد!

تدرك فعلاً أن جزءاً من حياتك قد انهار كليّةً وإلى الأبد!

كلٌّ ما عدا ذلك ثرثرات صالونات!

إلهي، ماذا يدور في دماغ جهاديٍّ يضع قنابله في سلّة مهملات محطّة مترو؟!

اعذرني مجدّداً عزيزي الغالي ملكُ الموتى، الذي يعرف هومو سابيانس أكثر من أيٍّ كان، على هذا السؤال المرهق الملحّ الذي لدغني ويؤلمني منذ غياب نجاة. سيكون قطعاً سؤالي الأخير.

فاجأني ملك الموتى، لأوّل مرّة، بملامح حزنٍ على قسماته، وأنا

أتحدّث عن أشلاء نجاة. كنت أظنُّ أن رحيلها ليس أكثر من حبّة رملٍ ينضاف إلى صحراء مملكته!

فاجأني أيضاً برغبته العجولة في الردِّ على سؤالي الأخير قبل أن أكمل سردي، وكأنّ ملاك النهايات يفضِّل الإجابة على الأسئلة بترتيبٍ معاكسٍ يبدأ من الأخير!

- يحلم الجهاديُّ أن يستبدل كلَّ قنابله وعبواته الناسفة بقنبلةٍ واحدةٍ فقط، قال نديمي الغالي الذي لم يستطع إخفاء مراراته!

- واحدة فقط؟؛ عقّبتُ مندهشاً!

- نعم، واحدة! انتقائيّة جدّاً؛ ردّ صديقي بغموضٍ وبرودة، قبل أن يستطرد:

- تبيد بنفس الانفجار كلَّ مليارات البشر الذين لا ينتمون إلى طائفته العقائديّة. (تصوّرْ حجم المشقّات التي يرميها اللعين على عاتقي في ثانيةٍ واحدة!).

يسترسل:

- كلّهم تقريباً باستثناء عددٍ محدَّد فقط يحتاجهم لاستمرار إنتاج السيّارات والهواتف والطائرات والأدوية وكلّ ما لا يستطيع الاستغناء عنه من منتجات العصر الحديث.

لكنها تبيد، في نفس الوقت بالطبع، ودون أدنى استثناءٍ هذه المرّة، كلَّ المتاحف والتماثيل واللوحات التشكيليّة والكتبَ التي أبدعتها أجيال البشر منذ فجر التاريخ، والتي لا تنتمي لثقافة طائفته العقائدية!

تثلَّجَ عمودي الفقري وأنا أصغي لمن يعرف لعبة الموت والإنسان،

أكثر من أيٍّ كان، يردُّ عليّ بِكلماتٍ هادئةٍ نقيّة تشرخ الضلع.

قشعريرة.

صمتٌ طويل...

لاحظ صديقي أنه استبق بردِّه نهايةَ سردي، وأربكَ متنَ أفكاري.

قال:

– استرسلْ من حيث توقّفتَ، لو سمحت. سأردُّ على فسيفساء جميع تساؤلاتك دفعةً واحدة بعد ذلك.

استطردتُ:

طقوس "العشاء الأخير" لحظات فنٍّ وابتهالٍ وتشبُّثٍ بقليلٍ من الحياة، هربت خلالها من يوميّات بلاد العرب؛ من أخبار مجازر سوريا ومناظر صواريخها وطائراتها وهي تمطر براميل عملاقة ومتفجّرات كيماوية على رؤوس المواطنين؛ من كوميديا ثورة اليمن وزخرفات سجّاداتها الكاذبة؛ من "بلاد الضجيج المطلق والغباء المطلق"، كما صرت أسمّي بلداننا العربية...

صرت أيضاً أميل في قراءاتي أكثر فأكثر إلى "بلد الصمت المطلق والذكاء المطلق": الصين.

بدأ انغماسي فيها بعد قراءة كتاب الاستراتيجي الصيني الشهير سان تزو، **فنّ الحرب**، الذي يقول:

"يكمن فن الحرب في هزيمة العدو دون مواجهة، دون أدنى خسارة، دون قطرة دم!".

أو: "قبل خوض المعركة يلزم أن يكون النصر قد تحقَّق تماماً!"...

السبيل إلى ذلك: "الذكاء المطلق"!

لغةٌ لم تعتد عليها حضارتنا العربية، ولا الحضارة الغربية أيضاً. وجدت فيها نفسي أمام العكس النموذجي لشعارنا العربي الأصيل الذي تكثِّفه الحكمة اليمنية الغبيّة جداً: "الهنجمة[1] نصف القتال"، وأمام النقيض الباهر لثقافة الغرب أيضاً: ثقافة الحروب الاستعراضيّة والهجوم المجرم المتغطرس، منذ حرب طروادة وحتّى حرب تدمير العراق، مروراً بالحربين العالميتين.

يانليو، صديقتي الصينيّة القديمة في مركز البحوث (أتجاوزها بخُمس قرن، أربعة أضعاف "جدار بلانك")، "حنجلتْ"[2] بي في هذا العالم الجديد بشكلٍ عموديّ.

أشعر بهدوءٍ لذيذ عندما أثرثر معها خارج أبحاثنا المشتركة. دماغها متحرِّرٌ من كلِّ أغلال ثقافتنا. كلُّ شيءٍ في الحياة، بالنسبة لها، حربٌ على الطريقة الصينيّة، بما فيه علاقتنا الثنائية وثرثرتنا اليومية، وعلاقتها بذاتها أيضاً (أو: جهاد النفس، كما يسمّيه الحديث الشريف)!

الحديث معها نسماتٌ لا تتوقّف...

يمتعني كثيراً أنّها لا تعرف شيئاً عن الملاءة الثقيلة التي تخنق حياتنا ويستحيل التنفُّس داخلها: الميتافيزيقيا.

كلُّ غيبيّاتنا وقائمة مجاذيبنا وتفاحاتنا الممنوعة وصلوات استسقائنا وصلوات استثلاجنا وفتاوى فقهائنا... مفاهيمٌ لم تسمع

---

١ الهنجمة: التهديد والوعيد الحامي الوطيس.

٢ حنجلت بي: دحرجَتْ بي بِعطفة ساقين (من "حنجلة").

عنها، مثلها مثل أكثر من مليار صينيٍّ تقريباً.

لا يمكن لهذه المفاهيم والقصص أن تدخل دماغ يانليو، مثلي تماماً وأنا أصغي لنقيق ضفادع.

لم تسمع غير هوانينان زي:

نقفز من العدم إلى الكينونة
ومن الكينونة إلى العدم
دون أن تكون هناك نهايةٌ أو بداية
لا يعرف أحدٌ من أين نبت كزهرة

تنظر يانليو إلى صراعاتنا وحضاراتنا المعجونة بالدِّين، شرقاً وغرباً، كما تنظر اللبوة من أعلى جبلٍ إلى ذئبين يتقاتلان في أسفل الوادي!

لاحظتُ ذلك ونحن في مقهى على هامش مؤتمرٍ أدبيٍّ في أبيردين (اسكتلندا)، نتصفّح جرائد فرنسيّة وعربية وصينية.

تنظر يانليو إلى صورةٍ (في ملفٍّ فرنسيّ عن آخر تفاصيل مقتل بن لادن) انتشرت في معظم الصحف في مايو ٢٠١١، بُعيد أيّامٍ من مقتله في بيته بباكستان.

في الصورة: أكثر من عشرين عسكريّاً ومدنيّاً أميركيّاً، يقبع بينهم أوباما، يراقبون شاشةً ضخمةً تنقل عملية الهجوم على بيت بن لادن بشكلٍ مباشر، إلى غرفة عملياتٍ فارهةٍ حديثةٍ جذّابة، في مكانٍ ما في أميركا.

ابتسامةٌ جميلةٌ ماكرة لاحظتُها على شفتَي يانليو، وهي تتفحّص الصورة!

أُعجبتْ صينيّتي بالصورة، لأنها تستلهم ذكاء إخراجها من روح **فن الحرب**.

تقول لي:

"ذكاء الصورة يكمن في جعلنا نشاهد فيها وجوه المراقبين وهم يوجِّهون أنظارهم، بتركيزٍ مثير وإخراجٍ مسرحيٍّ عبقريّ، نحو تلك الشاشة.

لكنَّ ما يدور في الشاشة غائبٌ عن الصورة!

اللامرئي هنا أهمّ من المرئي: تلك هي أبجديّة فلسفة **فنّ الحرب**!

ذلك يعني فيما يعني: ما يدور على الشاشة فظيعٌ، فظيعٌ جدّاً. تخيّلوه كما تستطيعون!... لن تروه لأنه أفظع مما ستتخيّلونه في كلِّ الأحوال!".

رمتْني بتأمّلاتها، وأنا أحدِّق في الصورة، بعيداً جدّاً.

تملأ شاشةَ دماغي أشلاءُ ضحايا تفجيرات المترو: أبشع مقامات الفظاعة. لا أحتاج أن أتخيّل أكثر من ذلك، شكراً يانليو!

اختناق ودوار...

أحكُّ رأسي: تنتصر هكذا هذه الرأسمالية التي ترفض الغروب، تنتصر كالموت في آخر المطاف!...

تقرأ يانليو خبراً في صحيفة صينيّة: "إسرائيل تحتفل اليوم بإطلاق صاروخٍ جديد، أفق ١٠، للتجسّس على الموائد العامرة وغرف النوم

في الشرق الأوسط".

بعيداً عن الفضاء، وعن الأرض (التي لم نحلّ عليها بعد مسائل وجوديّة مثل: أيجوز أن تقود المرأة السيارة؟): مقالٌ في صحيفة عربية كنت أتصفّحها، لم أجرؤ على ترجمته ليانليو، ينقلني إلى أسفل الأرض بقليل، إلى التخصّص الذي نحتكر أهم وأرقى اكتشافاته: علوم "عذاب القبر".

يسرد المقال أهمَّ اكتشافات علمائنا في هذا المجال: يلخِّص محاضرةً على يوتيوب لرئيس جامعة الإيمان في اليمن، عضو مجلس الرئاسة السابق، الذي استدعاه "ثوّار ساحة التغيير" ليمنحهم "براءة اختراع"، يعرض فيها شريطاً بعث مندوبَه لتسجيله على الحدود الروسية النرويجية، "يحوي أصوات الملايين وهي تصرخ أثناء عذاب القبر. يمكن تمييز أصوات النساء فيه عن الرجال!".

اكتشافٌ آخر عن ألوان وعدد أذرع ورؤوس "عقارب وثعابين أسفل الثرى" المختصَّة بعذاب القبر.

آخر عن: كيف تتوسّع القبور وتضيء كالقمر لمن يعيش "نعيم القبر"...

– ماذا تقرأ؟ ما الذي يربكك؟؛ تسألني يانليو.

– لا شيء، لا شيء...

– أأنت متأكّد من ذلك؟

– متأكّد جدّاً!

– جدّاً؟

- جدّاً، جدّاً...

قالت لي يانيلو وهي تعلّق على مقال:

"عندما طلب الأمريكان منا في نهاية النصف الأخير من القرن الماضي التغييرَ الجذريَّ لنظامنا الاقتصادي والسياسي معاً، قلنا لهم: لا!... الاقتصاد: يانج، والسياسة: يين. يمكن أن يطوِّع أحدهما الآخر ويعيد صياغته ليتناغم معه، لا غير. لكن تغيير اليين واليانج معاً يؤدي إلى السقوط والانهيار، كما برهنت الأحداث بعد ذلك في الاتحاد السوفييتي.

لذلك غيَّرنا الاقتصاد أوَّلاً فقط ليصير أكثر رأسماليةً من الاقتصاد الغربي، وحافظنا على السياسة الشيوعيّة الديكتاتورية وقواعد حياتنا اليومية كما هي!

اخترعنا مفهوماً صينيّاً خالصاً لن يستوعبه الغرب يوماً: اقتصاد السوق الاشتراكي!"

أحكُّ رأسي قرب يانليو من جديد: تنتصر هكذا أكثر فأكثر هذه الرأسمالية التي جئت إلى فرنسا لرؤية غروبها...

لم تقل لي يانليو يوماً ما يستشرفه ويلاحظه ويدركه الجميع: التفوّق الاقتصاديّ الصينيّ سيهيمن قريباً على العالم، بفضل اتّكائه على الذكاء المطلق والصمت المطلق. (لا تحبُّ يانليو الغطرسة والضجيج إطلاقاً. هي "مثل الشبح لا يترك أثراً، مثل الماء لا يجرحه أحد"، كما قال هواي نان تسو).

كان الأسبوع الذي قضّيته معها في أبردين لذيذاً، ممتعاً، لن أنسى مفعوله الساحر.

طفنا بالسيارة شواطئَ بحر الشمال، معاملَ الويسكي في الريف الإسكتلندي، اقتنينا أنواعاً ثمينةً منها بالبهارات، نادرةً مفلفلةً عبقةً ولذيذةً جدّاً.

ثرثرنا كثيراً (هي خفيفة الظلّ، هوائيّة) في مقهى مدهش اسمه "مقهى الروح" في قلب المدينة، كان قبل سنوات جزءاً من كنيسة اسمها جليكومستون!

لم تستوعب صينيّتي، كما يبدو، دهشتي وأنا أرى كنيسةً تتحوّل إلى بار.

الأمر سيّان، ربما، في عينيها اللامعتين الضاحكتين على الدوام. وكأنّ البار كنيسة والكنيسة بار، بشكلٍ أو بآخر. يين ويانج. وجهان لحاجة اجتماعيّة إنسانيّة واحدة!...

أفتتح صباحاتي هذه الأيّام بقراءة الصحف الصينية المترجمة. أصغي إلى راديو وتلفزيون شنغهاي. ثمّ أقرأ ترجمةً لبعض الكتب الكلاسيكية الصينية...

حكمة اليوم الصينيّة:

"من يجيد فنَّ فتحِ صمّامات الروح وغلقِها يصبح مثل 'التاو'[1]: لا نهائي الصغر لا يتغلغل فيه أحد، ولا نهائي الكبر لا يحتويه أحد".

بدأت أيضاً تعلُّم القراءة والكتابة باللغة الصينية، بحماسٍ لم أعرفه في حياتي من قبل!

حلمي أن أستطيع كتابة هذه الحكمة الصينية بلغتها الأم:

---

١ القوّة الأصليّة. الرحم الذي يتشكّل فيه اليين واليانج في الفلسفة الصينية.

"من يكسب نصرَه مستفيداً من مناورات الآخر يمتلك فنّاً إلهيّاً حقيقياً".

برنامجي القادم: زيارة شنغهاي بمعيّة يانليو.

رغبةٌ صغيرةٌ أتمنّى تحقيقها خلال تلك الزيارة: قيادة درّاجة وسط قطيعٍ ضخمٍ من صينيين يتوجّهون إلى أعمالهم بالدراجات في الصباحً الباكر...

قبل برنامجنا الأسبوعي المشترك (ساعة سباحة، تتلوها ساعة جريٍ في الغابّة. وساعتان يُدلِّك كلٌّ واحدٍ منّا فيهما جسد الآخر كما يهوى، أسمِّيهما: ساعتَي كيمياء الينً واليانج)، قلت ليانليو:

- قبل الوصول إلى شنغهاي سنهبط ترانزيت في موزمبيق. حلمٌ قديمٌ أيضاً، لا أريد أن أغادر الحياة دون تصفية الحساب معه.

أريد أن أعرف أين تقع موزمبيق بالضبط، وما أخبار ثورتها التي تَعاركنا حتّى الرابعة فجراً حول صياغة توصيةٍ لِدعمها، في بداية سبعينيات القرن المنصرم، عند كتابة مشروع قرارات وتوصيات مؤتمر فرع "أشيد" لشبيبة الشيخ عثمان وضواحيها!

بعد موزمبيق أودُّ أن نعرج يومين أو ثلاثة على شواطئ جزيرة عمران بعدن. أشعر بالبرد والاختناق طوال العام الذي يمرّ دون أن أسبح فيه مرّةً واحدة. (أنا من ملّة نجاة: "لا يُهلكنا إلاّ الدهر، لا يُحيينا إلا البحر!").

لا أستطيع أن أهضم أننا لم نسبح فيه بعدُ ثلاثتنا، حتّى اليوم. (يانليو حبلى في شهرها الخامس). ثلاثتنا: آل عمران!

(قلت: آل عمران؟... لا أعرف حتّى اليوم إن كان عمران أبَ سيّدينا موسى وهارون، أم أبَ سيّدتنا مريم؟ لا يهمّ!

أحبُّ اسمي العبريّ – العربيّ. مثيرٌ جدّاً في هاتين الكلمتين "جناس التصحيف": لا تختلفان إلا في ترتيب حرفَي الباء والراء، ومع ذلك!...

أحبُّه كثيراً. أحبّ اسمَي هارون ومريم أيضاً. وكذلك جاو، اسم صاحب "جبل الروح"، جاو جزينجيان، الحائز على نوبل في الآداب).

ثمّ، من يدري، لعلّي سأستأنس في عدن بصحبة آخر صامدٍ يريد أن نردِّد معاً في الشارع آيتي المفضّلة: "الشعب يريد إسقاط النظّام"، وإن أمسى الشعب أكثر إرهاقاً من أن يريد فعلاً شيئاً ما.

يكفيه أن يكون على قيد الحياة فقط. أما أن يكون فوق جناح الحياة، فذلك حلمٌ ناعمٌ لا يدغدغ اليوم إلا الشعراء وأنصاف المجانين...

يانليو (التي لا تحتاج ساعةَ يد لأنّها، مثل الصينين، "تقرأ الوقتَ في عين القطّة". وربما تقرأ خارطةَ المكان في عين الفأر أيضاً) غيّرتْ برنامج رحلتنا كليّةً بعد أن أكملتْ تدليكي بأناقة خلال ساعتَي كيمياء اليين واليانج، واطمأنّتْ من سعادة ووهج إيقاع حركتي الدمويّة.

لم تغيّر صينيّتي برنامج الرحلة لأنّه لا مناص من التناغم المخلص مع مزاج فتاةٍ حبلى في شهرها الخامس، ولا مندوحة عن الانصياع الطوعيِّ السعيد لرغباتها، بل لأنّها سرّبتْ بين رذاذ كلماتها هاتين

الجوهرتين الصينيّتين جدّاً:

"ليس هناك أصعب من البحث عن قطّة سوداء في ليلٍ بهيم. وبشكلٍ خاص، إن لم تكن ثمّة قطّةٌ في الأساس!".

و"الرّحالة الحقيقي يسافر بدون خارطة طريق!".

باريس، روان، عدَن (١ مارس ٢٠١٣ - ٢١ إبريل ٢٠١٤).

تموت زوجته في تفجير إرهابي في فرنسا ليمتزج دمها بأقلام الرصاص التي حملتها له كهدية. يعود عمران إلى اليمن الذي اتحد شمالاً وجنوباً وانتشرت فيه السلفية الدينية حتى وصلت إلى عدَن، مدينة صباه التي فتنته فيها نظرات المراهقة فاتن ولقاءاتهما الحميمة الصامتة، والتي علّمته فيها "الدكتورة" أبجدية الحياة الجنسية.

في صنعاء يلتقي داعيةً سلفيةً قياديةً يمارس معها الحب المحرّم: أمَة الرحمن التي تشبه كثيراً ابنة الماركسي العتيق سوسلوف، "هاوية"!

تندلع ثورة فبراير في اليمن فينزل إلى الساحات حاملاً أحلاماً قديمة وفكراً علمانياً متنوّراً، بينما يثور السلفيون على نظام كان راعيهم على الدوام.

رواية تخوض في المحرّم لتحكي واقع اليمن المعاصر وتاريخ عدن وهي تتحوّل إلى مدينة مقهورة منقّبة، بعد أن كان لها من اسم الجنّة نصيب.

**حبيب عبد الرب سروري كاتب وروائي يمني. بروفيسور في علوم الكمبيوتر في قسم هندسة الرياضيات التطبيقية، كلّية العلوم التطبيقية، روان، فرنسا. صدرت له عن دار الساقي رواية "أروى".**

ISBN 978-6-14425-800-2

9 786144 258002 >

DAR AL SAQI
دار الساقي

www.daralsaqi.com